عبد الرحمن البزاز

من

روح الإسلام

الطبعة الاولى

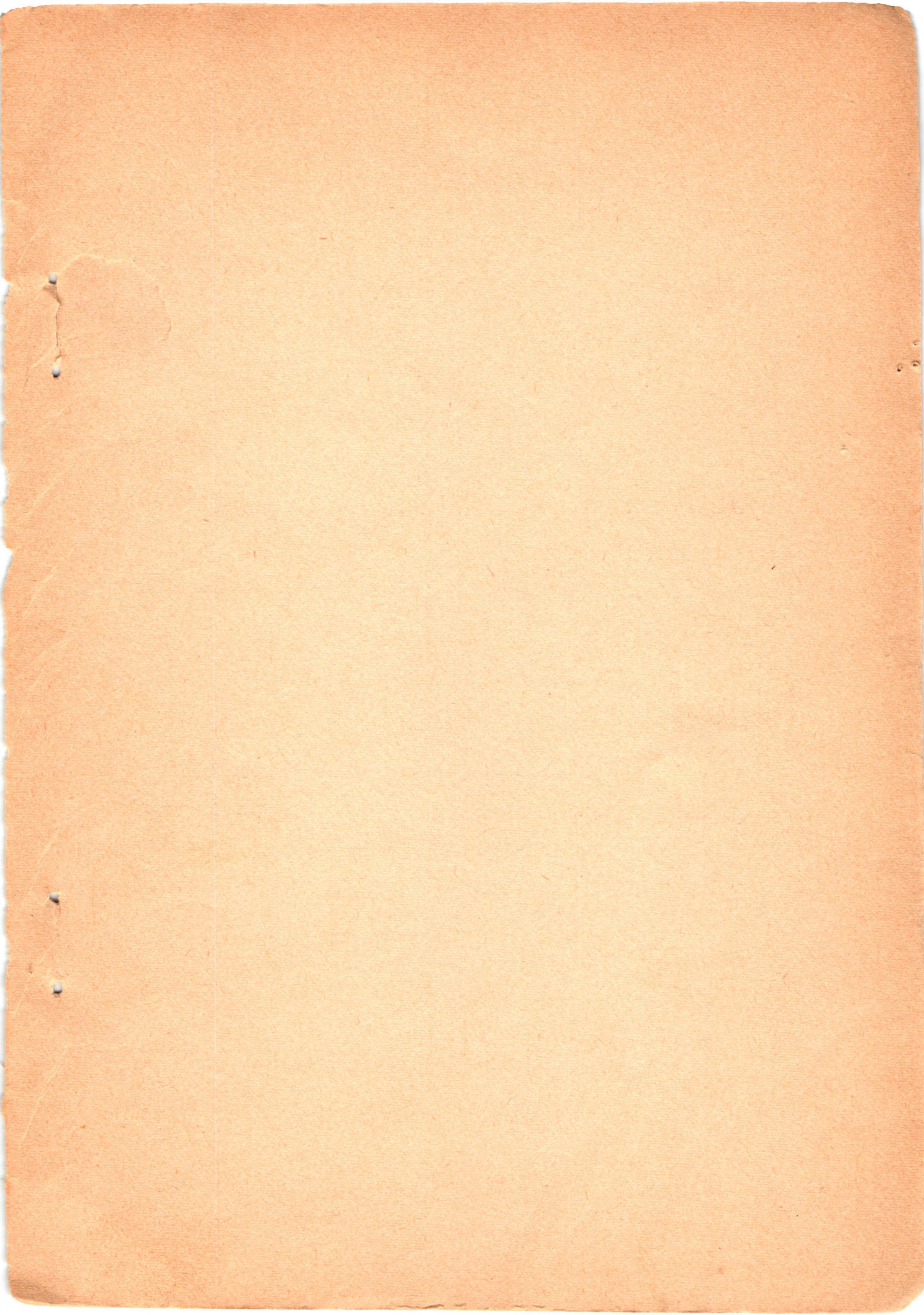
١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م

مطبعة العاني ـ بغداد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّى
وَمَا اُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيلًا .



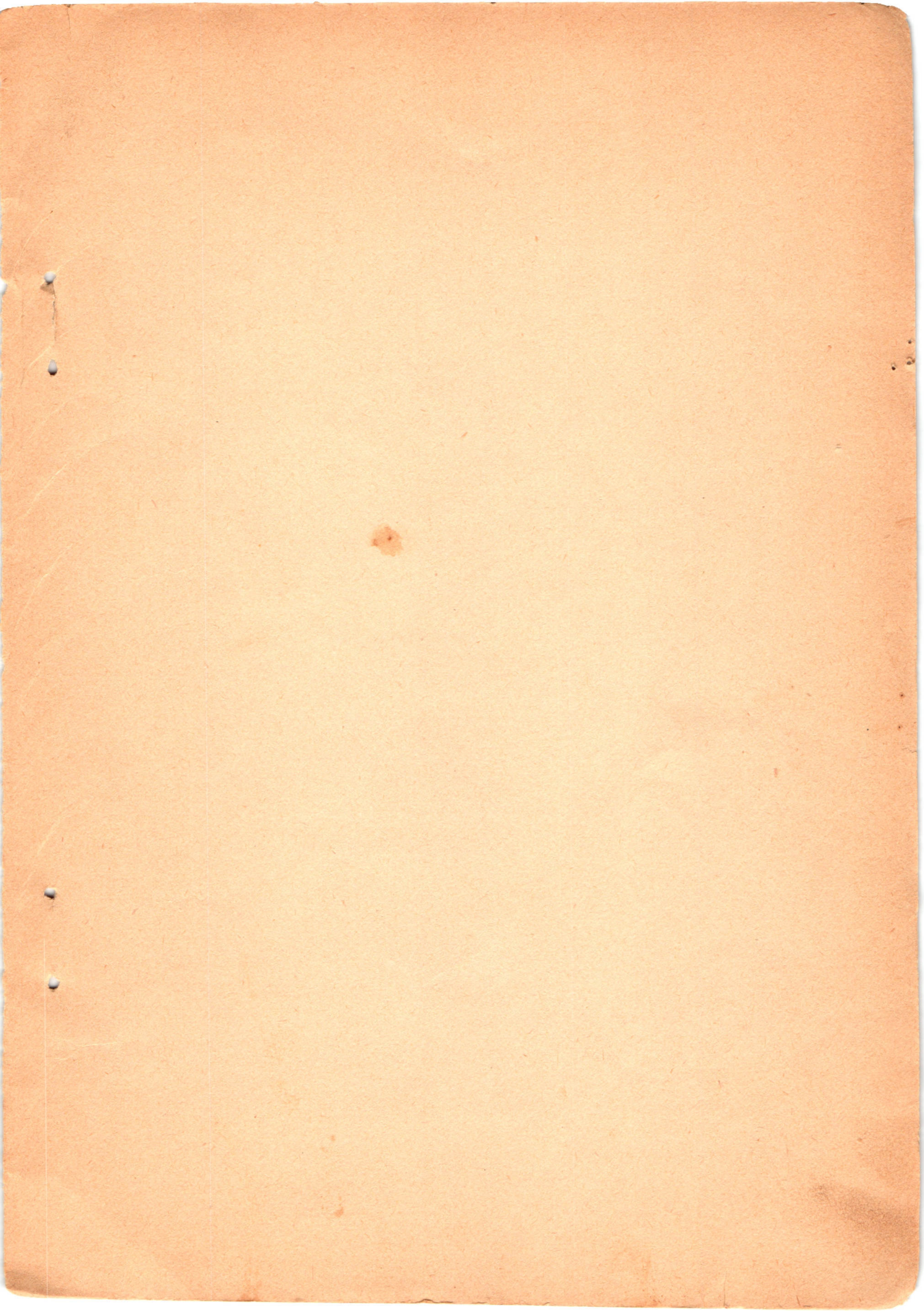
الإهداء

الى الذين ادركوا ببصائرهم الثاقبة ان وراء هذا الكون المحدود قوى غير قوى المادة التى نراها بعيوننا ، أو نلمسها باناملنا ، أو ندركها بسائر حواسنا الاخرى ، أو تكشف عنها علومنا الطبيعية •

الى الذين آمنوا بـ « ما وراء الطبيعة » ، «آمنوا بالنفس المتعززة المتمنعة الهابطة من المحل الارفع» كما يقول ابن سينا ؛ تلك الروح التى لا تخضع لنواميس المادة الضيقة ولكنها تملك – على الرغم من خفائها – من السلطان ما يجعل قوى المادة – مهما عظمت فى ابصارنا – تافهة هزيلة •

الى هؤلاء جميعا على اختلاف اجناسهم ، والوانهم ، واعمارهم ، واوطانهم ، وعقائدهم ، اهدي هذه الصفحات •

ع • ب



تمهيد

ليس هذا الكتاب الذى اخترت له هذا العنوان : « من روح الاسلام » بحثا عميقا ودراسة مسهبة لروح الاسلام ، على غرار ما قام به الكاتب الهندى المسلم (أمير علي) فى كتابه المشهور المعنون (روح الاسلام) ، ولا هو دراسة لفلسفة الاسلام على نحو الاسفار العديدة التى دونت بالعربية وباللغات الاجنبية فى هذا الموضوع المتشعب الذى يتسع للقول الكثير ، ولا هو - فوق هذا - دراسة للعقيدة الاسلامية فى أصولها وفروعها ، ولا هو عرض لتأريخ الفقه الاسلامى وحكمة التشريع .

ان هذه الدراسات المتنوعة كلها حقول رحيبة ، وبحار لجب ، خاض غمارها فى أزمان مختلفة وبكفايات متفاوتة كثير من الباحثين والمفكرين والكتاب والمؤرخين فى مختلف العصور ، وعلى مر الازمان . وعلى الرغم من وفرة ما كتب ، فلم تزل هناك - الى يوم الناس هذا - نواح عديدة فى الدراسات الاسلامية (التأريخية ، والفكرية ، والعقائدية ، والتشريعية وغيرها) بحاجة ، أى حاجة ، الى من يكشف عن غموضها ، ويجلى نواحى العبقريات المتشعبة فيها ، لتظهر على حقيقتها ناصعة مشرقة .

ان ناحية واحدة من هذه النواحى كنت امنى نفسى منذ أمد بعيد بالانصراف اليها ، والكتابة الجدية الاصيلة فيها ، واعنى بها

الناحيـة التشريعية . كنت احسب انني بحكم مهنتي ودراسـتي وتدريسي ، مهيأ بعض الشيء لولوج ميدانها الرحيب . ولـكن الشواغل العديدة ، وتقلبات الاحداث ، وتشعب مجهوداتي الخاصة – على الرغم مني – في أكثر من ميدان واحد ، حال دون تحقيق هذه الامنية العزيزة بأنجاز شيء ذي بال في هذه الناحية . واني لارجو مخلصا ان اوفق في انجاز هـذا البحث ، وجعله بابا خاصـا في كتابي « الموجز في تاريخ القانون » . او جعله كتابا خاصا ملحقا به لتتم الغاية المرجوة من تدريس مادة « تاريخ القانون » في كلية الحقوق ، فضلا عن افادة الذين يتعطشون للدراسات الاسلامية في حد ذاتها بغض النظر عن الدراسة الرتيبة في الـكليات .

ان هذا الذي انشره اليوم ، مجموعا في هذه الصفحات ، هو في الواقع عدد من الخطب والاحاديث والمقالات التي القيت أو كتبت في مناسبات عديدة في فترة زمنية تقرب من عشرين عاما .

ان هذه الحقيقة يجب ان تكون واضحة لئلا يخيب ظن الذين قـد يوهمهم العنوان فيتوقعون أشـياء أعمق كثيرا مما يجدون . وهي ضرورية لمعرفة الاسـباب التي ستبدو ظاهرة في اختـلاف الاسلوب ، وتباين طريقة العرض للموضوعات التي عالجتهـا . وطبيعي ان يحدث مثـل هـذا التباين وان يختلف الاسلوب في مقالات كتبت في أزمان متباعدة ، وظروف مختلفة . كما ان اعلان هذه الحقيقة ضروري لتفسير علة التكرار لبعض الافـكار

الاساسية التى اشرت اليها فى أكثر من خطاب أو حديث ، وذلك لرغبتى فى تأكيد تلك الاسس العامة التى ادعو اليها .

واحسب ان من واجبى ان انبه الى ان قسما كبيرا مما يضمه هذا الكتاب بين دفتيه خطب القيت فى مناسبات دينية (كالمولد النبوى أو ليلة الاسراء) ، أو أحاديث القيت من دار الاذاعة (بمناسبة شهر رمضان) أو نحو ذلك . وعلى هذا فالطابع الخطابى غالب عليها ؛ ففيها تبسيط ، وفيها بعض التكرار الذى قد لا يستساغ فى المقال المكتوب ، وهو غير مستساغ حتما فى الكتاب المؤلف المحبوك . وفى هذه الخطب قسط وافر من الحماس ، وفيها اثر ظاهر للتجاوب للحسيات العامة الشائعة حين القائها . وفيها ـ بطبيعة الحال ـ حساب تام لبيئة المخاطبين ، وهذا ما يعبر عنه بمقتضى الحال الذى يسعى كل خطيب فى جعل كلامه مطابقا له ليحظى بالتجاوب مع مستمعيه ، وليرقى الى مصاف الكلام البليغ .

والخطب ـ فى العادة ـ تلقى بالمناسبة ، وقد تفقد كل قيمتها أو جلها أو قسطا موفورا منها بزوال تلك المناسبة ، وتغير الظروف والاحوال . ولكنى حين اعدت قراءة هذه الخطب وتلك الاحاديث وجدتها الى اليوم محتوية على قسط طيب من الفكر الاساسية التى لم نزل الى يومنا هذا ، بل لعلنا فى يومنا هذا ، بحاجة الى من يذكرنا بها . وبعبارة أخرى فقد وجدت ان

فی ما قلته فی فترات متقطعة ، فی حقبة زمنية تمتد نحوا من خمس قرن ، أفكارا أساسية ، ومعانی مفيدة ، احسب ان هذا الجيل الصاعد الذی لم يتح له سماعها ، أو لم يتح له سماع معظمها على الاقل ، بحاجة الى قراءتها . وقد خيل الي - وقد أكون مخطئا - أن بعض القراء سيجد فيها أضواء تنير لهم سبيلهم فی هذا العصر الذی طغت فيه المادة ، (والفكر المادية) أی طغيان . وقد يجدها فريق آخر قولا معادا ، وهراءاً قد عفى عليه الزمن أو كاد ...

ان هذه الخطب ، وتلك الاحاديث ، مستمدة فی جوهرها « من روح الاسلام » الذی انار بصيرتی طيلة حياتی المدركة ، وما يزال يمدنی بفيض لا ينتهی من المثل العليا التی أومن بها ، وتجعل نظراتی الى الحياة نظرة خاصة لا يرقى الى ادراك معانيها ، ادراكا تاما ، غير الذين عمر الايمان قلوبهم ، واضاءت أنوار علوية ، نفوسهم ، ولذلك أحسب هذا العنوان منطبقا على الواقع ، ومعبراً عما اردت اجمل واوجز تعبير .

وحری بي ان انبه الى ان موضوعا « واحدا » من موضوعات هذا الكتاب قد عنونته من قبل (روح الاسلام) وقد رأيت من المناسب ان أجعله فی صدر هذا الكتاب . ولقد حاولت فی هذا الموضوع بالذات ان اوجز روح الاسلام كما افهمها ، وهو حري ان يعد مفتاحا لبقية الخطب والاحاديث كلها .

لقد اشرت فی هوامش الصفحات الى تأريخ القاء كل خطبة

أو حديث • وحرصا على الامانة العلمية فقد ابقيت النص كاملا دون تغيير أساسى اللهم الا حذف بعض التعابير الخطابية التى كان يفرضها مقتضى الحال ، كما اجريت اصلاحات لغوية ولفظية طفيفة لابد من اجراء مثيلاتها حينما يعيد الانسان ما سبق ان كتبه قبل فترة من الزمن خاصة •

واحسب ان من حق القارىء عليّ ان انبه الى علة النزعة المتشائمة ، والنغمة الحزينة ، التى طبعت بعض تلك الخطب والاحاديث بطابعها • ان مرجع ذلك هو ان تلك الخطب والاحاديث قد القيت بعد النكبة الكبرى التى حلت بالمسلمين عموما ، والعرب خصوصا ، منذ وعد بلفور وقيام الانتداب البريطانى فى فلسطين ، ثم منذ ان وقعت الكارثة بقيام اسرائيل وتشريد أكثر من مليون عربى ، وضياع فردوس جديد هو من أقدس وأجل بقاع العروبة وديار الاسلام • وكنت أحسب ان من أسباب هذه النكبة الاساسية ـ بالاضافة الى الاسباب العديدة الاخرى التى لا اجهلها ـ الروح الصليبية التى لم يزل الغرب المسيحى يصدر فى علاقته مع الشرق المسلم عنها بصورة شعورية أو لا شعورية • وعلة ذلك جهله بالاسلام وتكوين صورة شوهاء فى ذهنه عن هذا الدين الذى هو فى واقع الحال أقرب الاديان السماوية للمسيحية • ومع ذلك فقد كان عداء الغرب المسيحى للمسلمين أشد ما يكون •

على ان الغرب معذور بعض العذر فى جهله الاسلام ، وبغضه له ، ومن جهل شيئا عاداه ، ولكن المؤلم ان يجهل المسلمون انفسهم دينهم ويبتعدوا عن روحه ، ويعطوا فى سلوكهم صورة بشعة عن حقيقته مما ساعد فى تكوين هذا الحكم الجائر ، وأعان على اشاعة هذا التعصب المقيت • ولقد حاولت ان استثير الهمم ، واميط اللثام عن كثير من هذه الحقائق • وكنت مشفقا من السوء الذى حل ـ وما يزال يحل ـ بنا بسبب هذا الوضع المزرى الذى ارجع أسبابه ـ فيما ارجع ـ الى جهلنا بالاسلام ، وتنكرنا لتعاليمه ، واغفالنا لروحه • ولقد كنت اكرر هذا المعنى فى احيان كثيرة ، بل كنت احيانا لاذعا فى نقدي ، صارما فى دعوتى ، متشائما بعض الشيء فى لهجتى ، وكنت احسب ان ذلك قد يساعد على الكشف عن « روح الاسلام » كما تبدت لي على حقيقتها غراء ناصعة • وكنت احرص على ان تكون هذه الروح معلومة لدى كل عربى ومسلم ـ شائعة فى نفسه شيوع خيوط الشمس فى الكون الذى تغمره •

وانى فوق هذا لاحسب ان هذا النهج ضرورى لاشاعة المعرفة الحقة التى هى سبيل السلام الحق • ان قسطا وافرا من دواعى الحروب وأسبابها يكمن ـ فيما أرى ـ فى النفوس الذاحلة التى يغذيها الجهل ، وينميها التعصب المقيت • ونحن فى عالمنا الصغير ، الآخذ فى الصغر يوما بعد يوم ، اذا اردنا ان نعيش فى

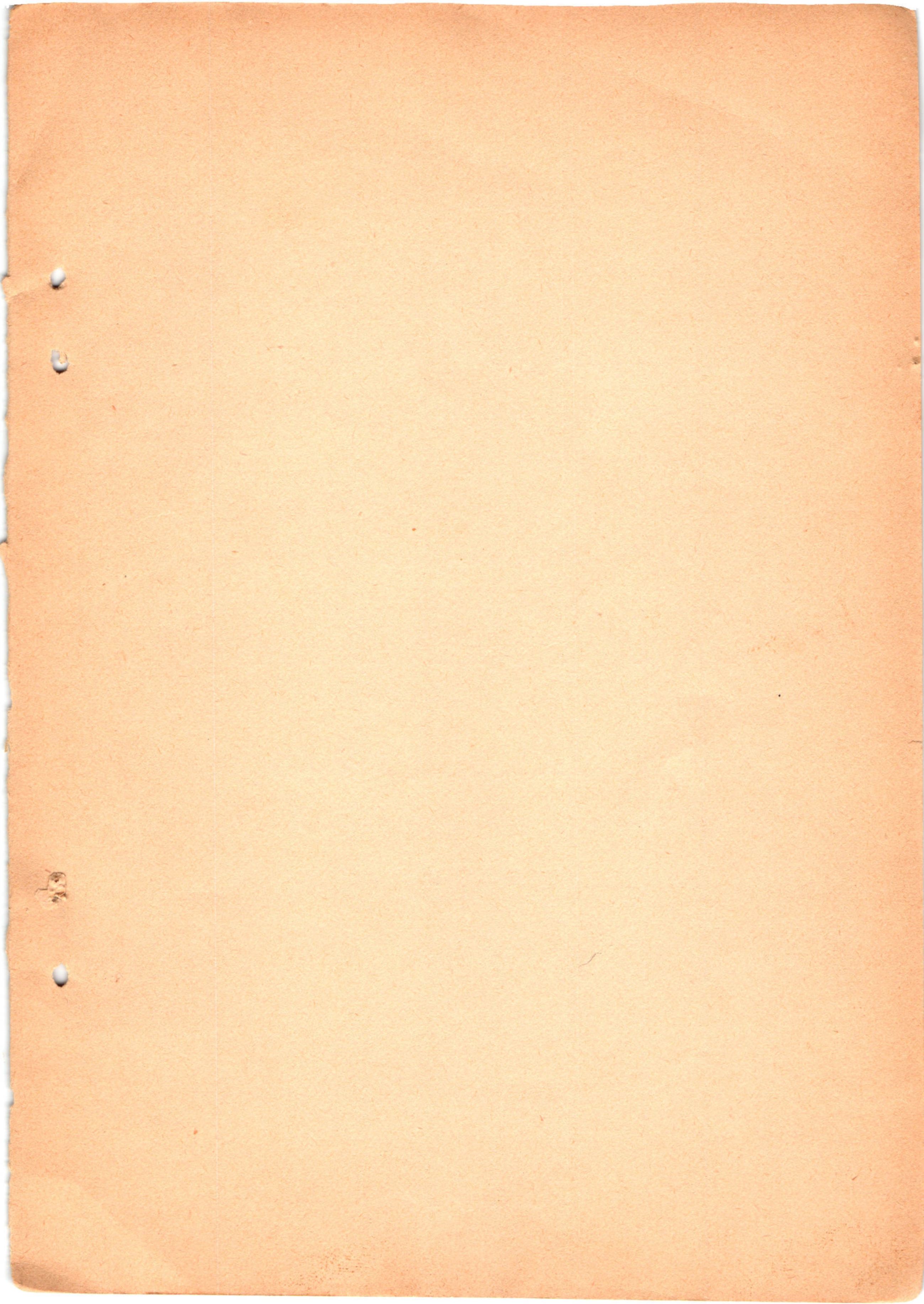
هـذه الارض بسكينة واطمئنان ، علينـا ان نبذل الجهد الصادق لمعرفة بعضـنا بعضـا ، وادراك بعضـنا لعقـائد البعض الآخـر واحترامها ، وتقدير جميع القوى المادية والادبية التى تؤثر فى سلوك الافراد والجماعات على الرغم منهم احيانا ٠

ان الاديان عموما ، والدين الاسلامى خصوصا ، لم يزل قوة جبارة لها أعظم الاثر فى حياتنا فى أكثر من ناحية واحدة ٠ وعلى ذلك فجهلنـا به ، وتقاعسـنا عن ادراك روحـه وتقـدير اثره ، خليق ان يمهـد للصراع والحروب ؛ صراع فى ذات نفوسـنا ، وحروب بين أفراد الشعب الواحد ، وبين الامم والاقوام ٠ على حين ان البارىء تعالى قـد خلقنا من ذكر وانثى وجعلنا شـعوبا وقبائل لنتعارف فيما بيننا ، ونعمر الارض الطيبة ، وننعم بخيراتها ، ونعيش فيها بأمن وسلام ٠

وانى لارجو أن أكون قد وفقت للـكشف عن روح الاسلام الحق ، وان أكون بذلك قد اسهمت فى الدعوة الصادقة للسلام ٠
« وسلام على عباده الذين اصطفى »

بغداد ـ كلية الحقوق فى ٣١ـ١٢ـ١٩٥٨

عبدالرحمن البزاز



(١)

روح الاسلام[1]

جميل بناء فى هذا الوقت العصيب الذى نمر به ، وتمر به الانسانية كلها ، ان نفكر فى روح الاسلام ، لنستنير بها فى ظلمات هذا الكون المدلهم ، ولنستلهم منها مادة صالحة لهذه الحياة ...

ورب قائل يقول : اما زلنا نجهل « روح الاسلام » حتى نحتاج الى من ينبهنا اليها ، ويذكرنا بها ؟ ... بل رب منكر يتساءل : وما لنا وروح الاسلام ، بل وما نحن والروحانيات كلها فى هذا العصر الذى لا يقيم لغير المادى المحسوس وزنا ؟ ...

اجل اننا ـ فى غالبيتنا العظمى ـ لم نزل نجهل الاسلام جهلا مطبقا ، ولم نزل نتنكر لروحه تنكرا مشينا ، واننا لأبعد ما نكون ، اليوم خاصة ، عن تلك الروح السامية ، واحوج ما نكون للتفكير فيها لنستوحى منها مثل حياتنا . واننا بعد ذلك ، وقبل ذلك ، بحاجة ـ أية حاجة ـ الى الروحانيات عامة ، والى روح الاسلام خاصة ، وان ما نقاسيه فى حياتنا ، أفراداً وجماعات ، لا يرجع الى اغراق هذا الجزء من المشرق بالروحانيات كما يتوهم بعض المفكرين ، بل لاننا قد جهلنا الروحانيات ، أو تجاهلناها ، والقينا بها وراءنا ظهريا . ومن الحق علينا ان ندرك ان لا سبيل لسعادتنا

---

(١) القى هذا البحث فى حفلة اقامتها جمعية الاداب الاسلامية فى قاعة الشعب سنة ١٩٥٤ .

فى هذه الحياة ، بله الحياة الاخرى ، ما لم نؤمن بالروحانيات ايمانا صادقا . وأستطيع ان أقول جازما ان الازمة الحادة الخانقة التى نقاسى منها ، كما يقاسى العالم بمجموعه ، ترجع ـ فيما ترجع ـ الى هذا الغلو فى المادة ، وذلك التنكر المنكر لكل روحانى أو مثالى ...

وبعد ، فما هى روح الاسلام ؟ وما السبيل لاشاعتها فى النفوس حتى تخالط اللحم والدم ؟ وكيف نترجم تلك الروح السامية ، والمثل الرفيعة ، الى لغة الاعمال التى هى أصدق اللغات وأبلغها فى الخطاب ؟؟ هذا ما أود ان أقول فيه كلمة موجزة فى هذه العجالة .

وعندى ان روح الاسلام تتلخص بايجاز فى : « ايقاظ ضمير الفرد ، وتحقيق القوة فى الجماعة ، وايجاد التضامن الكلى ، والتكافل التام بين الفرد والمجموع » .

فلننظر فى عقائد الاسلام ، وفرائضه ، واحكامه ، وتشريعاته ، وقواعده ونظمه نظرة عميقة فاحصة لندرك بعض هذه المعانى .

فأول ما يهدف اليه (التوحيد) مثلا ـ وهو اس الدعوة الاسلامية وعنوانها ـ تطهير النفس الانسانية من ادران الشرك ، واوضار الوثنية ، اذ كيف يمكن ان يتحقق الضمير المطمئن اليقظ حينما تتنازعه قوى الارباب والمعبودات العديدة ؟ وهل من سبيل ليقظة الضمير بغير التسليم بأله واحد صمد ، ليس كمثله شيء ،

لا تدركه الابصار ولـكنه يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ..؟

« والصلاة » وهى عماد الدين ، وركنه المـكين ؛ اهى مجرد القيـام والقعود ، والركوع والسـجود ، وآيات ترتل ، وتسابيح تتلى ، ودعوات ترنم ؟ أم هى قبل كل شيء نية خالصة ، وتوجه كلي للذات الالآهيه حتى تشعر النفس الانسانية بانها مراقبة فى كل سـاعة من سـاعات اليوم ، بل وفى كل لحظة من لحظات الزمان ؟ وبذلك يقيم المسلم من نفسه على نفسه حافظا وشهيدا ، ويديم ضميره يقظا حساسا كالآلة المرهفة الـكاملة الصنع تدرك حتى أصغر الاشياء وأدق الحركات ، فلا يفكر ولا ينطق ، ولا يعمل ، الا على بينة وهدى ، ولهذا وصفها الله تعالى بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ...

وأول ما تتطلبه الصـلاة الضـمير الحى اليقظ ، والذمة التى تتأثم ، والوجدان الذى يتباعد عن كل فحشاء ويتجافى عن كل منكر . ومن نافلة القول ان أقول هنـا بان الحركات والمراسيم الشكلية التى يقوم بها فريق من الناس بحكم العادة ، أو لأغراض ، لعل آخرها مرضـاة الله ، والتى تفارقهـا الروح اليقظة ، والنية الخالصة ، ليست من العبادات التى شرعها وفرضها على عباده فى شيء .

والوضوء المشروط لصحة الصـلاة أهو مجرد عمل مادى لتنظيف بعض الجوارح وأعضاء الجسم البارزة ؟ أم يراد به ، فوق

ذلك تنبيه وتهيئة نفس المسلم والمسلمة زيادة فى تأكيد ايقاظها ؟ ولذلك استعاض الاسلام عن الماء الطاهر ، وهو وسيلة التطهير المادى ، بما يقوم مقامه فى تحقيق التنبيه والطهارة المعنوية ، وهو الصعيد الطيب ، فشرع التيمم حين لا يوجد الماء ...

ثم ان « البر » وهو أعلى مرتبة من الاسلام والايمان ، قد عرفه الله تعالى فى محكم كتابه ، ونفى عنه ما ليس منه فى هذه الآية الكريمة التى تضوّع روحانية وكمالا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون . » فهل هناك قول أبلغ صياغة ، وأعظم أثراً فى ايقاظ النفوس من هذا التعريف الجامع المانع الذى يفيض جلالا وجمالا ؟ وفى الجملة فحيثما نظرنا فى تعاليم الاسلام واحكامه تجلى لنا هذا المعنى واضحا جليا .

ولهذه الروحانية اليقظة ــ ان صح هذا التعبير ــ تنكر الاسلام للكهنوت ، ولم يوجد طبقة من رجال الدين ، ولم يقم كنيسة ــ بالمعنى المعلوم ــ وحارب الرهبنة ، ولم يشترط وسيطا بين المرء وربه فى العبادات . وإمام الصلاة ــ فى صلاة الجماعة ــ هو قائد الامة ، وهذا الامام فرد من الناس لا تجب على الجماعة

طاعته الا ما أطاع الله ، فان عصاه فلا طاعة له عليهم ...

ثم ان الاسلام قد قضى على معظم الشكليات والطقوس التى كانت تزخر بها كثير من الديانات السالفة ، وحينما استبقى القليل منها فبالقدر الضرورى اللازم ، وهى على كل حال لا تراد لذاتها بل لمعنى فيها ، وان الاسلام يؤكد هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم ، وانه ليجدّ فى تأكيد أهمية الوازع الذاتى ، حتى يصل بالنفس الى اسمى معارجها ، حتى ليكاد يجعل من كل مسلم « صهيبا » لو لم يخف الله لأتقاه ...

ولهذه الروح اليقظة والنفس اللوامة ، شدد الاسلام على بعض المنكرات خاصة ، وجعل الكذب ، بعد الكفر بالله ، وقتل النفس التى حرم الله ، من الموبقات ، حتى قال النبى عليه السلام حينما سئل أو يكذب المرء حينما يكذب وهو مسلم ؟ فقال لا . وجعل آية المنافق ثلاثا : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان . وجعل الله المنافقين والكاذبين فى الدرك الاسفل من النار ..

واذا ما تركنا الفرد جانبا ، ونظرنا الى الجماعة نجد : ان روح الاسلام تحتم على الجماعة أول ما تحتم ، ان تكون قوية عزيزة ، والعزة لله ورسوله والمؤمنين .. ولست أقدر هنا أن استرسل فى شرح هذه الناحية وأنما اكتفى بكلمات قصيرة فى تفسير صدر

هـذه الآية الـكريمة التى نتلوهـا ، ولـكننا لا نسـتوعب كل معانيها : « واعـدوا لهم ما اســـتطعتم من قوة » وكثيرا ما استوقفتنى هذه الـكلمة القصيرة (قوة) التى وردت بصيغة النكرة لا المعرفة ، والمفرد لا الجمع ، والتى جمعت على (تنكيرها) و (افرادها) من المعانى ما لا يمكن ان يجتمع فى عبارات الجمع والمعرفة الطوال ، وفى هذا سر من أسرار التنزيل وآية من آيات الاعجاز . فالمراد بها مطلق القوة ، وليست القوة المعهودة المحصورة ، ثم انها « قوة » وليست القوى لان القوى مهمـا تنوعت محـدودة معينـة . اما الـ « قوة » التى أمرنا ان نعدها فلا حدود لها ، ولا قيود فيها . فالعلم قوة ما فى ذلك شـك ، ونحن مطالبون لقوة الجمـاعة ان نتجهز بالعلم الصحيح . والصـحة قوة ، ما فى ذلك ريب ، لان الاجسام الهزيلة الخورة لا تصـلح لمقارعة الخطوب ، ومنـازلة الاعداء ، فروح الاسلام تحتم علينا ان نعنى بصحتنا لنكون أقوياء ، « والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » . والاخلاق قوة - بل هى فوق كل القوى - وليس لجيش ، مهما كثر عدده ، وازدادت عدته ، شأن ما لم يكن أفراده مزودين بالاخلاق المتينة القوية . وعلى هذا فنحن مطالبون بهذه الآية ذاتها ان نقيم أخلاق الجماعة على قواعد راسخة من الاخلاق الفاضلة .

وبديهى ان القوة تشمل كذلك كل ما كان أو سيكون من أنواع السلاح والعتاد والـكراع والجيوش والوحدات والاساطيل ،

والقذائف . واننا ـ ان كنا مسلمين حقا ـ ملزمون ان نعنى بهذا كله ، والا فنكون قد تباعدنا عن روح الاسلام الحق . ونحن مخاطبون جميعا أفراداً وجماعات حكومات وشعوبا بأن نكون أقوياء أعزاء ، وان التقاعس فى هذا الشأن تعطيل لامر أساسى وركن من أركان هذا الدين مكين .

ولكن جدير بنا ان نتذكر بأن القوة التى دعا الاسلام اليها ، واوجب العناية فى اعدادها ، ليست القوة المادية الغاشمة التى تتعشق التدمير وسفك الدماء ، وتتلذذ بالتخريب والدم المهراق ، وانما تفرض روح الاسلام القوة لانها تدرك ان قوة الجماعة هى الوسيلة الفعالة لاحقاق الحق ، واشاعة العدل ، وحفظ كرامة الامة بمجموعها ، وان الامة القوية تكون أعظم فى عيون أصحابها وأرهب لقلوب اعدائها ، وهى بذلك اشفى لغل صدر الحسود . والمسلمون أصحاب الضمائر اليقظة ، المفعمة بنور الايمان ، لا يستعملون تلك القوة للتحطيم والدمار بل للانشاء والتعمير ، وتحقيق العدل المطلق بين الشعوب والاقوام ، ولذلك قال كوستاف لوبون (ما عرف العالم قط فاتحا اعدل من العرب) وذلك لان اشبال الجزيرة حينما انطلقوا من مرابضهم ، واندفعوا من عرينهم ، كانوا مشبعين بتلك الروح السامية الرفيعة ..

اما التكافل بين الفرد والمجموع فيكفى ان نتذكر قول الرسول عليه السلام (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

ويكفى ان نتذكر قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) • ولست ادرى هل انا بحاجة الى ذكر حكمة الزكاة ، وقوله تعالى فى صفة المؤمنين ((وفى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)) ؟ ويكفينا ان نستعيد شيئا من ذكرى تاريخ صدر الاسلام ، ـ وهو مرآة الاسلام الصافية قبل ان تفسد العجمة بهاءه ـ وكيف كان خلفاؤه ، وامراؤه وقواده يشعرون بالمسئولية العظيمة عن كل فرد من أفراد الامة • وكان عمر بن الخطاب يقول :ـ

((لو مات جدي بطف الفرات لخشيت ان يحاسب به الله عمر)) • ومن روائع القول ، وجوامع الكلم فى هذا الباب ـ وفيه عظة بالغة يحسن بموظفى الدولة عامة ، والمشرفين على الجباية خاصة الاتعاظ به ـ ما كان يكتب به الامام علي لمن يستعمله على الصدقات • « أنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعّن مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله • فاذا قدمت على الحى فانزل بمائهم من غير ان تخالط ابياتهم ، ثم امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم ـ أى لا تبخل ـ ثم تقول : يا عباد الله ارسلنى اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى اموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه ؟ فان قال قائل لا ، فلا تراجعه ، وان أنعم لك منعم فانطلق معه من

غير ان تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فانْ كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فأن أكثرها له ، فاذا أتيتها فلا تدخل عليه دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنّفرن بهيمة ولا تفزعن ، ولا تسيئن صاحبها فيهـــا » ...

والقصــة التالية المنتزعة بنصــها الــكامل من بطون اسـفار التأريخ الذى يطفح بامثالهــا ، تصــور لنا شعور الحــاكم العظيــم بالتبعة تصويراً رائعاً أخاذاً ، وفيها بعد ذلك ، عظة بالغة وعبرة لمعتبر ...

قال أسلم . خرجنا مع عمر الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار ـ مكان على مقربة من المدينة ـ اذا نار تؤرث فقال : يا اسلم انى أرى ها هنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد . انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم .. فاذا بأمرأة معها صبيان وقدور منصوبة على نار .. وصبيانها يتضاغون . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء ـ وكره ان يقول يا أصحاب النار ـ فأجابته امرأة : وعليكم السلام . فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادنو بخير أو دع . فدنا منهــا فقال : ما بالــكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع . قال : وأي شيء فى هذه القدور ؟ . قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ... والله بيننا وبين

عمر ، فقال : أي رحمك الله . وما يدرى عمر بكم ؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؛ فاقبل عليّ فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم وقال : احمله عليّ ، قلت : أنا احمله عنك ، قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ؟ ، لا أُم لك ، فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه اليها فالقى ذلك عندها . وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول لها ذرى وأنا أحر لك - أى اتخذ لك حريرة وهى الحساء من الدقيق والدسم - وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة فرأيت الدخان يخرج من خلالها ، حتى طبخ لهم ثم أنزلها وأفرغ الحرير فى صفحة وهو يقول اطعميهم وانا اسطح لهم - اى ابرده - ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الامر أولى من أمير المؤمنين ...

لست ادرى هل هناك مجتمع كامل يصل فيه الشعور بالتبعة الى اسمى من هـذا المقام ؟ ودعونا نفكر فى جملتين قالت الاولى هذه السيدة التى ترى ان من واجب أمير المؤمنين أن يعنى بهـا وباطفالها ... « يتولى امرنا ثم يغفل عنا » ، وقال الاخرى الخليفة العادل وهو يحمل الدقيق على ظهره ويخاطب صاحبه الذى يريد ان يحمل الدقيق عنه « أنت تحمل وزرى يوم القيامة ؟ » ففيهما الدليل القاطع على عظم الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وتمام التكافل بين الجمـاعة والفرد ، ثم فيهمـا الدليل على صدق تلك العـلاقة

ومتانتها . فالمرأة تشعر أن من حقها وحق أولادها على بيت المال ان يسد عوزها ، وعلى أمير المؤمنين أن لا يغفل عنها . وأمير المؤمنين شاعر بعظم هذه التبعة ، لا يريد أن يحمل عدل الدقيق غيره ، فانه اولى بحمله بعد أن حمل أمانة الامة بكاملها ...

فأين ، أين هذه الروح من هؤلاء الذين لا تهزهم نكبة العرب والمسلمين فى فلسطين ولا يعملون شيئا لانقاذ مئات الالوف من الرجال والنساء والاطفال والشيب والعاجزين من اخوانهم وأخواتهم فى الدين والقومية وهم يقاسون اليوم فوق امتهان كرامتهم ، وهدر انسانيتهم ، من البرد القارس ، والفاقة المضنية ، والبطالة المملة ، وهم فى خيام مهلهلة منت بها عليهم الدول التى كانت السبب الاساسى فى شقائهم ؟

وليس من روح الاسلام فى شىء هذه الانانية القاتلة ، وتلك الانهزامية الخوارة ، والفردية البغيضة التى تغمر مشاعر كثير من الافراد اليوم وتوجه اعمالهم حتى صار الامر بالمعروف والنهى عن المنكر منكراً ، والجرأة والصلابة بالحق تهورا وطيشا ، والتضحية والاهتمام بالصالح العام غباوة وغفلة . وصار لسان الحال ينطق بافصح لسان :

« اذا مت عطشانا فلا نزل القطر » وصار الناس يتواصون : انج سعدا فقد هلك سعيد » ...

وليس من روح الاسلام فى شيء هؤلاء الذين يتاجرون بدين الله ويتخذون منه مغنما وعرضا لتطمين مصالحهم ، واشباع شهواتهم ، واشاعة الفرقة والخلاف بين الامة ، والامة احوج ما تكون للاتحاد والتضامن والتناصر ...

وليس من الاسلام فى شيء هؤلاء الذين يشيدون ، بالاسلام بألسنتهم فى مناسبات يرجون من ورائها نفعا ، ويهدفون بها الى تضليل الجماهير وايهامهم بأنهم يشاركونهم معتقداتهم ، ولكن ليس للاسلام أى أثر فى حياتهم ، واعمالهم ، وطرائق معيشتهم ، فكأن الاسلام حلية يلبسونها فى المواسم والاعياد ... هؤلاء الذين يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون ، أشد على الاسلام ضرراً من أعدائه الصرحاء ، وخصومه المعروفين .

وان « روح الاسلام » ، بعد هذا لتنكر أشد الانكار ، أصحاب القلوب الغلف ، والضمائر التى لا تتأثم ، الذين لا يعنيهم ان يفتقر الشعب حين يغنوا ، وان تجوع الامة حين يشبعوا ، وان يذل حين يكون لهم سلطان زائف مجلوب ...

ذلك هو « الاسلام » ، وهذه هى روحه : « ضمير للفرد يقظ ، وقوة للجماعة ، وتكافل تام بين الفرد والمجموع » ...

بهذا الاسلام سدنا فيما مضى ، وعليه صلحت أحوالنا ، وبه اليوم نسود ، وعليه ـ لو عرفناه حق معرفته ـ تصلح أحوالنا .

وانه فوق ذلك لقادر على اصلاح العالم بمجموعه ، وتحقيق سعادته ، والقضاء على الفوضى التى تحيق فى جنباته ، والاضطراب الذى يخيم فى آفاقه ... انه طريق الخلاص ، وانه الصراط السوى الذى ينشىء فى هذه الدنيا الفرد الكامل ، والمواطن الصالح ، ويحقق الحكومة الفاضلة التى تخيلتها عقول الفلاسفة والحكماء ، وعشقتها أرواحهم ، ولكنها فى غير الظل الوارف للاسلام الحق ، خيالات وأوهام ...

---

(٢)

الدين في عصر الذرة[١]

بسم الله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .

وبعد فذكراك ابا القاسم شذية النفحات ، معطرة الانفاس يفنى الدهر ولا تفنى ، وحياتك نبراس يهدى الى اقوم سبيل وانصع محجة ، وجهادك الرائع يعلم الانسانية كلها أعظم دروس التضحيات واجلها ، ونواحي العبقرية في شخصيتك الفذة لا حصر لها ، ومجال القول فى حياتك الرائعة ، وخلقك السامى ، وسيرتك الشريفة ، واسع فسيح بكل ما فى السعة والفسح من معان . ولكنى آثرت فى هذا الحفل البهيج ، المقام لهذه الذكرى الكريمة ان اقصر حديثى فى الاجابة على سؤال واحد ، احسبه من الاهمية بحيث يحسن ان يعالج باسهاب تام ، ووضوح كامل ...

انه سؤال مهم طالما تساءل عنه بعض المتسائلين ، وكثيرا ما جال فى اذهان بعض المفكرين والمتشككين . وهذا السؤال هو : « هل البشرية اليوم ، فى عصر الذرة ، بحاجة الى الدين ؟ » ... ألم نزل نحن أبناء هذا العصر وبناته ، هذا العصر الذى سيطر فيه الانسان على الجو الخارجي للعالم بقذائفه الصاروخية ، وأقماره الطائرة ، هذا العصر الذى وفق فيه الانسان بفنه وحذقه ومخترعاته

---

(١) (القى هذا الخطاب فى الحفل الذى اقامته جمعية الآداب الاسلامية بمناسبة ذكرى المولد النبوى ونقل من دار الاذاعة العراقية يوم الخميس المصادف ٢٥-٩-١٩٥٨) .

ان يوجد المحركات التى سبقت الصوت فى سرعتها ، وتوشك ان تغالب النور ، وهى على كل حال قد فاقت بسرعتها الريح المعصرة أضعافا مضاعفة ، هذا العصر الذى يعد الانسان العدة فيه لغزو بعض اجرام الكون القريبة التى يحسبها صالحة لسكناه ، هذا العصر الذى وفق فيه العلم الحديث الى اصطناع العقل الالكترونى الذى صار يساعد فى حل أعوص المشكلات الحسابية والفرضيات الرياضية فى لحظات معدودات ، هذا العصر الذى تمكن فيه الانسان من اكتشاف ، أو اختراع ، أو ابتكار ، وسائل لا تحصى فى تقريب المسافات ، وتذليل الصعوبات ، وتيسير الحياة الى أقصى حدود التيسير ...

ومرة أخرى ألم نزل نحن أبناء هذا العصر ، بكل علومه ، وفنونه ، ومخترعاته ومكتشفاته ، ووسائله ، بحاجة الى الدين ؟؟؟

لقد تشكك بعض الفلاسفة فى بعض القيم الدينية منذ فجر التاريخ ، وانكر بعض المفكرين الدين أصلا ، وادعوا عدم حاجة الناس اليه ، خاصة فى عصر البخار ، وبعد قيام الثورة الصناعية الكبرى فى الغرب . وقد قويت تلك الشكوك فى بعض أنحاء العالم ، فى عصر الكهرباء ...

واليوم وقد بلغ الانسان هذا المبلغ من القوة بحيث قهر الطبيعة فى كثير من مجالاتها ، وغالب الزمان والمكان ، وصار باستطاعته ان يحيل قطرا عامرا الى صحراء يباب ببضع قنابل

هيدروجينية ، وبحيث صار بمستطاعه ان يحول الجبال الصم الشامخات قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا ، ويهلك الحرث والنسل ببضع قنابل ذرية ، وبحيث تستطيع غواصاته الضخمة ، ما خرات المحيطات ، ان تقطع ألوف الاميال بقوة الذرة المتفجرة دون حاجة الى وقود ، وهى تستطيع ان تغوص فى أعماق المحيطات أياما وشهورا دون حاجة الى ان تحط فى اليابسة أو تطفو على سطح البحار . هذا الانسان بعقله الجبار المبتكر ، وقواه الهائلة المتشعبة - هكذا يتساءل بعض المتسائلين - ألم يزل بحاجة الى الدين والايمان بوحى السماء ؟ ...

واحسب ان الجواب الصحيح على هذا السؤال المهم الملح الخطير يتوقف ، أولا ، وقبل كل شىء على تحديد معنى الدين ، وبيان الغاية الاساسية منه ...

وليس فى مقدورى ، بطبيعة الحال ، تحديد الدين بصورة دقيقة فى هذا المقام ، وليس من غرضى تعريفه تعريفا جامعا مانعا ، كما يقول المناطقة ، ان كان ثم سبيل الى مثل هذا التعريف . ولكن يخيل لى انه مما ييسر فهم الجواب ، ويقربه الى الاذهان ان نخرج من مفهوم الدين كل ما هو ليس من الدين فى جوهره وأصله .

فليس الدين حضارة من الحضارات ، أو مدنية من المدنيات ، وان اسهمت بعض الاديان فى اقامة بعض الحضارات ، واعطت

بعض الاديان بعض المدنيات طابعا خاصا . وليس الدين نظاما للحكم ، ولا شكلا من أشكال الدول ، وان عملت بعض الدول على استغلال دين من الاديان ، أو عقيدة من العقائد لتأييد حكمها وتثبيت دولتها . وليس الدين فى جوهره نظاما اجتماعيا أو مذهباً اقتصاديا ، وان اسهمت بعض الاديان بمقادير مختلفة فى تكوين بعض النظم الاجتماعية والتمكين لبعض المذاهب الاقتصادية ، وليس الدين فوق هذا كله سياسة معينة من سياسة هذه الدولة أو تلك ، فى هذا الزمن أو ذاك ، وان كانت بعض الاديان تعنى بالناحية السياسية والاجتماعية قدر عنايتها بالناحية الفردية التهذيبية . وأكثر من هذا ، ليس الدين نظرية علمية أو فكرة فلسفية يتقبلها الناس بالرضا حينا ، ثم لا تلبث ان تطغى عليها نظريات وأفكار أخرى احدث وأكثر بريقا منها ...

ان جوهر الدين فيما أرى ، شىء فوق هذا كله ، وأجل من هذا كله ، انه عقيدة تقوم ، أول ما تقوم ، فى النفس المؤمنة ، ثم تشيع حينما تشيع فى الجماعة من حيث هى كائن عضوى حى . وتتطلب أول ما تتطلب ، الايمان بالغيب ، والتصديق بالروح ، والتسليم بوجود قوة عليا خالدة هى فوق هذا الكون المادى المحسوس الفانى .

وقد يتضح الفرق بين الذى يؤمن بالدين ، والذى لا يؤمن به من الجواب على السؤال الآتى : هل هناك فى هذا الكون

قوة غير قوى المـادة ، وهل هنـاك كيان غير هـذه الطبيعة التى نشـهدها ، أو نحسـها بحواسنا الظاهرة ، أو ندركهـا بعقولنا المحدودة ؟ وهل فى الانسان شىء غير جسمه المتكون من لحم ودم وعظام وجلد وعضلات ؟؟

فاذا كان الجواب بعدم وجود شىء غير هـذا العالم المادى المحسوس ، وعدم وجود شىء فى نفس الانسان غير كيانه المتجسم ، فيكون من العبث البحث فى الدين • واذا كان الجواب ينصب على التسليم بوجود قوى عليا خفية يعلو سلطانها كياننا المادى مهما عظم هـذا الكيان فى أبصارنا ، وان فى كيـان الانسان شـيئا غير اللحم والدم والعضـلات والاعضـاء وما الى ذلك ، فهنـاك « الروح » التى نتحدث عنهـا ، ونحس بقوتهـا أحيانا ، ولـكننا نجهل كنهها اذا لم نؤت من علمها الا قليلا ، فعندئذ يكون قـد تحقق أول مستلزمات الدين ، وتمهد السبيل للايمان به أحسن تمهيـــد •

ان الذى لا يؤمن بالغيب ، وينكر هذه القوة العلوية السرمدية التى تسـيطر على كياننـا المادى ، وكوننـا المحسوس ، وعالمنـا الشمسى ، والعوالم الـكونية الاخرى ، وان الذى لا يؤمن بالروح التى احالت جسم الانسـان الصغير الى كيان كبير انطوى فيـه العالم الاكبر ـ كما يقول ابن سينا ـ من العبث البحث معه فى

تفصيلات الدين ، أى دين ، لانه ينكر الاساس الذى تقوم عليه دعائم كل دين وأصوله .

ونقطة أخرى حرية بالتنبه اليها فى هذا الصدد ، هى خلط كثير من الناس ، ـ حتى بعض المثقفين منهم ـ بين الدين من حيث هو معتقد ، والمتدينين ، أو على الادق بعض المتدينين ، من حيث هم بشر يتأثرون بعوامل لا حصر لها ، ليس الدين الا واحدا منها ، وقد يكون فى بعض الحالات ـ على الرغم من المظاهر الخادعة ـ اضعفها ، فصار لفظ الدين ينقل الى الاذهان صور بعض رجال الدين ، أو صور بعض المتدينين . وعلى العموم صار لفظ الدين يعنى التزمت المقيت ، والتعصب الاعمى ، والتقيد بالشكليات والرسوم ، والجمود على النصوص والقواعد دون النظر فى فحواها ومعانيها وحكمتها . لاشك انه يوجد فى كل دين سماوى قدر من العبادات والفروض ، وفيه مقدار من العقائد الثابتة الراسخة ، ولكن الدين ليس العبادات بمفردها ، وخاصة اذا اقتصر الامر على ظاهر تلك العبادات دون جوهرها . وليس هو ترديد ألفاظ تلك العقائد ، أو ادعاء الالتزام بها دون النظر الثاقب الى مآلها وأهدافها وغاياتها .

فالدين يهدف ، أول ما يهدف ، الى تهذيب النفس والحد من الشهوات ، وتربية الروح ، والعروج بها الى أعلى كمالاتها ، والدين يعنى ، أول ما يعنى القضاء والجزاء والحساب .

ومعنى هذا ان المتدين الحق هو الذى يقاضى نفسه ، بجد وصرامة ، أى يجعل من نفسه شاهدا على نفسه ، ويقيم من ذاته رقيبا على ضميره ، ويحاسب نفسه قبل ان يعرض على حاكم عادل مدرك لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور . ومعنى هذا بالضرورة ان المتدين الحق الذى يدرك معنى الدين ، ويهتدى بهديه هو الذى يكون له ضمير حى يقظ ، وذمة طاهرة تتأثم لانه يعلم « ان كل امرء بما كسب رهين » وان الناس مجزيون بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وان هناك كتابا يحصى على المرء أقواله وأفعاله بل وخلجات صدره ، وهو كتاب لا يضل ولا ينسى . ان ايجاد الانسان الفاضل ذى الضمير الحى ، والوجدان اليقظ والنفس اللوامة ، ضرورة انسانية كبرى فى كل زمان ومكان . وان الذين اشادوا الحضارات واقاموا العمران ، وعمروا الارض ، وحققوا للانسانية جلائل الاعمال هم أصحاب المثل العليا وهم الذين تهدف الاديان الى خلقهم واشاعة نظائرهم فى كل زمان وكل مكان .

لقد كان الدين ضرورة فى القرون الخوالى والحضارات السالفات ، كما هو ضرورى فى مدنيتنا الراهنة . انه ضرورى فى عصر الحديد والبخار والكهرباء وعصر الذرة على حد سواء . بل انه اليوم فى عصرنا هذا أكثر لزوما ، وحاجة الانسانية اليه أعظم وجوبا . ذلك لان تقدم الانسان المادى ، وقدرته الهائلة

التى تحصلت له من مخترعاته ومكتشفاته وتوفقه فى فلق الذرة ، خليق ان يجعله أكثر اعتدادا بذاته ، وأعظم ايمانا بخالقه الذى منحه هذه القوى الجبارة ، وأكثر تقديرا للتبعات الملقاة على عاتقه بسبب ما أصابه من تقدم مادى هائل ، هو ما لم يواكبه تقدم روحى سيحيل الانسانية حتما الى الدمار والفناء التام .

وان الدين هو من دون شك من أجل المصادر الروحانية واغزرها وأعظم دواعى المثالية وأجلها . ان هذه الارض الطيبة التى استخلفنا الله فيها لنعمرها ونعيش فيها بأمن وسلام لا يقدر البشر على تحقيق سلام صادق فيها ما لم يقم للقيم الروحانية وزنا تاما . وهنا يجب ان يكون نصيب الدين موفورا فى تحقيق القيم الروحانية ، وايجاد المثالية التى لا تطغى عليها القيم المادية .

ولنا الآن ان نتساءل بصراحة واخلاص ، اين يقف الاسلام ، الدين الحق ، من هذه المبادىء السامية التى تهدف اليها الاديان السماوية جميعا ؟

ونحن اذا نظرنا الى الاسلام نظرة فاحصة تبين لنا انه فى الناحية الفردية ، يهدف أولا ، وقبل كل شيء ، الى خلق الوازع الذاتى فى نفس الانسان بالمعنى الذى فصلناه من قبل . فليست العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وليست العقائد من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وحسابه ، وليست المعاملات التى وضع الاسلام اسسها ، الا وسائل تتضافر فى مجموعها لتحقيق

تلك الغاية القصوى . فالصلاة بما فيها من ركوع وسجود ، وبما تتطلب من طهارة واستقبال قبلة ، وبما يواكبها من تلاوة ودعاء توجب الخشوع لذات الله ، وتذكر الانسان مرات فى اليوم الواحد بوجود هذه القوة التى هى أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل كبير ، وابصر من كل بصير . فهى أذن مذكر بالخير ، وحارس يعصم عن كل سوء ، والصلاة التى لا تنهى عن فحشاء ومنكر ليست من الصلاة فى شيء ، بل انها مكاء وتصدية .

وكم يجدر بنا ان نتذكر بان القرآن الكريم عند ذكر « الصلاة » يستعمل هذه الصيغة دائما : اقم الصلاة ، اقيموا الصلاة والمقيمي الصلاة . فلفظ اقام ومشتقاتها يقترن بالصلاة دائما . ومعنى ذلك ان المرء لا يصلى بجوارحه حتى تعتبر صلاته صلاة ، بل لابد له ان يقوم بما تتطلبه الصلاة ، وأول ما تتطلبه الصلاة الانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ومعنى هذا بلغة العصر اقامة ضمير حى يقظ فى ذات الانسان يمنعه عن الفحشاء ، ما ظهر منها ، وما بطن ، وعن المنكر ما صغر منه وما كبر ، وعن البغى ، أى العدوان والتعدى والاساءة الى الغير ، كائنا من كان ذلك الغير ، مسلماً أو ذمياً صغيراً أو كبيراً ، قريباً أو بعيداً .

واننا اذا نظرنا الى جميع العبادات الاخرى التى فرضها الاسلام وجعلها من أركان دينه ، وجدنا هذا المعنى العظيم فى اصلاح ذات الانسان ، وكيان الجماعة ظاهرا فيها . فالزكاة مشتقة

من الطهارة والنمو ، فهى تطهير لمال الانسان ـ وبالتالى تطهير لنفسه ـ مما قد يخالطه أو يخالطها من ادران ، والزكاة بمعناها الاجتماعى تحقيق للعدالة الاجتماعية ، بالقضاء على الفقر من جهة ، والقضاء على تضخم الاموال وتكدسها من جهة أخرى ، والقضاء بذلك على أهم أسباب الفتنة ودواعى الفساد ، « الفقر المدقع » ، والغنى الفاحش •

ثم ان الاسلام من ناحيــة الجماعة يهدف الى اقامة الاخوة الانسانية التامة بأجلى واجل مظاهرها • فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لابيض على أسود ، الا بالتقوى أى « بالخضوع للنواميس الالهية التى تهدف الى خلق الضمير الطاهر الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » •

وان خير الناس من ينفع الناس ، وان الناس جميعا عيال الله ، واحبهم اليه ، ارفقهم بعياله ، وانهم جميعا من آدم ، وآدم من تراب •

ان هذه الاخوة البشرية ، قد ايدها الاسلام بمبادىء عديدة ، وحققها رسول الله الــكريم الذى نحتفل بذكرى ميلاده بسيرته الطاهرة ، وســار عليها خلفــاؤه الــكرام بأعمالهم الناصــعات • واحسب ان من المفيد فى هذا الصدد ، ان أذكر الواقعة التالية التى توضح هذا المعنى بعض التوضيح •

حينما زرت الولايات المتحدة الامريكية فى ربيع سنة ١٩٥٦

لتمثيل العراق فى لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة ، وطلبت الي بعد ذلك وزارة المعارف ان أقوم - بعد انتهاء أعمال اللجنة فى مدينة نيويورك - بزيارة بعض الجامعات والمعاهد فى الولايات المتحدة الامريكية للاطلاع على الحياة الجامعية فيها ، والدراسة القانونية بصورة خاصة . زرت فيما زرت ، مدينة شيكاغو . وقد علم بوجودى فيها شيخ أمريكى طاعن فى السن كان من القلة التى عاشت فى الشرق وعرفته فأحبته ، فاستزارنى ودعانى للعشاء معه فاستجبت شاكرا . وبعد العشاء أخذنى لغرفته التى يسكن فيها فى احد النوادى الكبيرة فى تلك المدينة الصاخبة . وقد احتفظ فى غرفته ببعض آثار الشرق ، ومعالم حياته ، وخاصة لمدينة القدس التى كان فيها آخر قنصل أمريكى قبل كارثة فلسطين وانشاء اسرائيل فى بقعة من أعز بقاع العروبة وأقدس ديار الاسلام . وكان من بين ما احتفظ به من آثار الشرق باعتزاز « رقعتان مكتوبتان بخط عربى جميل ، فى الاولى بيت من حكم المتنبى السائرة ، وفى الثانية هذا الحديث الشريف » : « الانسان أخ الانسان حب أم كره . » وقد أشار مضيفى اليها أكثر من مرة وهو يعرف معناها اذ كانت قد ترجمت له من العربية حينما كان فى القدس ، وكان يقول لي : لا اخفيك اننى مغرم بهذا الحديث ، وان اعجابى به ، وبخلق المسلمين المتدينين حقا لا حد له .

ان وحدة الانسانية ، والاخوة البشرية ، قد عبر عنهما القرآن

الكريم بأكثر من آية واحدة ، وصورتهما السنة النبوية الشريفة بأكثر من حديث . ولكن الآية الكريمة التالية كانت قد جلبت انتباهى الى معناها العظيم قبل بضع سنوات سيدة أجنبية دعانى زوجها فى القاهرة ، وكان من كبار القانونيين ، الى تناول الشاى فى بيته ، وكانت زوجته قد شرعت فى دراسة القرآن وتفهم احكامه ، وكانت مندهشة بسبب التقارب الكلي الذى صارت تجده بين دعوة الاسلام للمحبة والرفق ودعوة المسيحية الى ذلك . وكانت فى صباح اليوم الذى التقينا فيه قد قرأت قسطا من سورة المائدة ، واستوقفها جمال هذه الآية ، وروعة معانيها ، وهى الآية التى وردت بعد ذكر قصة ولدى آدم ، وعجز القاتل عن مواراة سوأة أخيه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا » . ومعنى هذا بلغة العصر ، كما نبهتنى تلك السيدة الفاضلة ، ان الاجرام ضد أى نفس انسانية هو اجرام ضد الانسانية كلها ، وان الاحسان لاى نفس انسانية هو احسان للانسانية بأجمعها . ومعنى هذا بكلمة أخرى ان الترابط بين البشر عظيم ، وان الخير الذى يصيب احدهم يصيب الانسانية بكليتها ، وان السوء الذى يحل باحد الناس كأنه حال بالانسانية جمعاء .

والاسلام بعد هذا ، يريد للانسانية الواحدة هذه ، ان تعيش بســلام .

ان « السلام » محبب لنفس المسلم ، لانه اسم من أسماء الله الحسنى ، وان جنته التى وعد المتقين بها هى « دار السلام » ، وتحية عباده الذين اصطفى « سلام » . وان من صفات عباد الرحمن انهم اذا خاطبهم الجاهلون قالوا « سلاما » وانه يطالب المسلمين بالجنوح للسلم اذا سالمهم الخصوم « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » بل انه لنزعته المسالمة هذه لا ينكر فضـل الاديان والاقوام التى سبقته ـ ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ .

ولـكن الاسلام يدرك طبيعة البشر ، وميل فريق منهم للحرب والخديعة ولذلك أمر اتباعه ان يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به عدو الله وعدوهم .

على ان « السلام » الذى ينشده العالم اليوم لا يتحقق الا حين يتحقق السلم فى نفس كل انسان أولا وقبل كل شىء . ولا يتحقق هذا السلم المنشود الا حين تصبح كل نفس « مسـلمة » تحارب الذحل القاتل ، والغيظ الـكامن فى ذات نفسها وتعاف المنكرات وتحب الاحسان ، وتجانب كل ما يثير الشهوات ويحقق الـكسب غير المشروع . والا حين ترى فى الجرائم الخلقية كالزنا مثلا اعتداء

على الانسانية كلها وهدرا لـكرامتها ، وعلى العموم تمقت الظلم لانه ظلمات يوم القيامة ، وتتعشق العدل ، العدل المطلق ، حتى مع الخصوم والاعداء ، « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

ان دعوة الاسلام للسلم دعوة خالصة ، صادقة ، براء من المصانعة ، والخديعة التى تقترن بدعوات كثير ممن يدعون اليوم « للسلام » .

لقد اعلن « بن غوريون » فى حديث صحفى مع محرر جريدة الهيرالد تربيون الامريكية نشرته قبل نحو من أسبوعين قال فيه : « ان من أعز أمانى اسرائيل التى تعمل لها بجد هو تحقيق السلم مع العرب » . ولست أدرى أى سلم هذا الذى يريده « بن غوريون » حين يعلن مرارا ان الارض المحتلة بجميع أجزائها أرض اسرائيلية حققها الاسرائيليون لانفسهم بكفاحهم ودمائهم ، وانهم لن يتنازلوا عن شبر واحد منها ، وان دولة اسرائيل لا تتسع لعودة أى عربى من فلسطين ، اذ فى البلاد العربية متسع لسكناهم ، وانه يعد العدة لجلب مليونين آخرين يجمعهم من شتى الاقطار والا فاق ليجعل منهم مع نحو المليونين الموجودين فعلا ، دولة لها جسامتها وخطرها وقابلياتها الصناعية والتجارية والحربية والاقتصادية وذلك كله بتأييد من الاثنى عشر مليونا الآخرين من يهود العالم لتؤبد

اسرائيل قسـمة الوطن العربى الواحـد الى شطرين منفصلين ، ولتحول بذلك دون تحقيق امنية العرب العزيزة باقامة كيان عربى عام واحد يجمع العرب من الخليج الى المحيط ، ولتبقى اسرائيل بعد ذلك قذى فى عيون العرب والمسلمين ، ولتكون خطرا دائما يهددهم تهديدا فعليا فى كل حين ، ولتصبح بعد ذلك - بل وقبل ذلك - وكرا للاستعمار ومؤامراته وكيـده للعرب والمسـلمين والشعوب المحبة للسلام جمعاء .

ان ما يريده « بن غوريون » ليس سـلما حقيقيـا عادلا بل استسلاما يفرضه هو وحلفاؤه على العرب وغير العرب فرضا .

وشبيه بدعوة بن غوريون للسلم هذه دعوة كثير من ساسة فرنسا وحكامها وقادتها لتحقيق السلم فى الجزائر ، انه سلم قائم على تمكين أقل من مليون من الاوربيين النازحين الى الجزائر فى رقاب ، وأموال ، واعراض ، أكثر من عشرة ملايين من العرب المسلمين أصحاب البلاد الحقيقيين . انه سلم يريدون تحقيقه بتقتيل عشرات الالوف وترحيل وتيتيم مئات الالوف ، وتهجير وتشريد الملايين من أبناء البـلاد الشرعيين الذين لقوا من ظلم الفرنسيين وجورهم وتعذيبهم ما ضج أحرار العالم منه ، بما فى ذلك أحرار فرنسا ذاتها .

ان فأل فرنسا فى تحقيق ذلك السلم المـكذوب خائب باذن الله ، وان النصر المؤزر الذى بدت تباشيره بقيام جمهورية الجزائر

الحبيبة ، لابد ان يتم ، ويتم معه السلم الحق العادل الذى يهدف اليه أبطال الجزائر . وانى لانتهز هذه الفرصة لارسلها فى هذه الليلة « الغراء » تحية معطرة خالصة الى أحرار الجزائر ومجاهديها ـ وهل فى الجزائر غير الاحرار والمجاهدين ؟ ـ تحيـة مباركة طيبة الى أرواح الشـهداء الابـرار الـذين هـم مـع النبيين والصـديقين والصالحين ـ والى الابطال المحتسبين الصامدين فى قمم الجبال ، وبطون الوديان ، واغوار الوهاد الذين لم يذلوا ولم يستكينوا ، والله مع الصابرين .

هذا هو الاسلام ، دين السلام والمحبة والعـدل ، هـذا هو الاسلام الذى تكفل بتحقيق الفضائل الانسانية ، على أكمل وأتم صورها ، هذا هو الاسلام الذى يرقى بالنفس الانسانية الى أعلى مراقيها ، هذا هو الاسلام الذى جاءنا به سيد الرسل سلام الله عليه ليتمم مكارم الاخلاق ، ويقيم نظام الجماعة ، على أساس من الاخاء الشامل ، والعدل المطلق ، والخير العام .

ان « هذا الاسلام » قد كان صالحا للبشرية فى امسها الدابر ، وهو صالح لها فى يومها الحاضر ، وسيبقى صالحا لها ابد الدهر ، ذلك لانه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها جميعا .

---

(٣)

الاسلام المفترى عليه[1]

لم يتعرض دين من الاديان ، ولا عقيدة من العقائد الاجتماعية أو الفلسفية أو السياسية ، لمناهضة الخصوم ، وكيد المعارضين ، وافتراء الاعداء ، كما تعرض له الاسلام فى مختلف العصور والازمان .

فمنذ بدء الدعوة الاسلامية اصطنعت اليهودية ـ وقد خشيت الاسلام ، وقدرت اثره على مستقبلها ـ شتى وسائل الارجاف ، والطعن ، والكيد ، والتضليل ، وحاربته بكل سلاح تيسر لديها . ثم لما كتب للاسلام ان ينتصر ـ ويأبى الله الا ان يتم نوره ـ حاول بعض اليهود الكيد له ، والطعن فيه ، والافتراء عليه ، من وراء ستار ، فاعلنوا انتحالهم الاسلام ، وان بقوا سرا مخلصين لعقيدتهم الاولى ، وجدوا فى حشو عقائد الاسلام بالاسرائيليات ، ومبادئه بالخرافات ، وروحانيته بالماديات ، واستطاعوا بذلك ان يفسدوا على فريق من المسلمين دينهم الفطرى الجميل . واثقلوا الاسلام بكثير من الخرافات والطقوس والاوهام مما لم يكن من دين الله الحق فى كثير أو قليل ، ومهد هذا كله لانقسام المسلمين شيعا وأحزابا ، وطوائف ، ومذاهب ، ومللا ، ونحلا . والاسلام

---

(١) نشر هذا المقال فى العدد (٣) من مجلة الكفاح الصادر فى ١٩٥٨/١١/٤ .

« وحدة » لا تقبل التجزئة ، وكتاب الله ينطق بالحق : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء ... »

وبعد ذلك لما استتب الامر للاسلام ، ووفق العرب المسلمون لانشاء حضارة مبدعة تفيأ ظلالها الوارفة كثير من منتسبى العقائد الاخرى ، حاول نفر من اتباع تلك العقائد القديمة ، والاجناس غير المنصهرة ، ان يكيدوا للعروبة والاسلام بطرائق شتى ، وأساليب جمة ، وليست أضاليل الزندقة ، ومفتريات الشعوبية عنا ببعيدة .

وفى العصور الوسطى ، حينما كان الشرق المسلم فى أوج ازدهاره ، ورفعة تقدمه ، والغرب المسيحى يتخبط فى دياجير ظلام دامس ، وجهل مطبق ، نفس الغرب على الشرق ، واشتد فى انتقاص عقيدته الدينية التى كانت أساس قوته ، وأعظم مقوماته ، وصور الاسلام ورسوله أبشع صورة ، ورمى المسلمين بكل عيب ، ونسب اليهم كل رذيلة ، وكانت قلوب الغربيين تتأجج بالحقد الممض ، والمقت الفاتك ، حينما تضافرت أسباب سياسية واقتصادية عديدة - مضافة الى الاسباب الدينية - لغزو الشرق بموجات كبيرة عديدة دامت قرونا ، وأريقت بسببها دماء غزيرة ، ووقعت تضحيات جلى . ولئن انتهت تلك الحملات التى صارت تعرف بين المؤرخين - بالحروب الصليبية - بنكوص الغربيين على اعقابهم خاسئين لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلد المقدس ، فلقد عادوا

مع ذلك بأشياء كانت أجدى عليهم فى مستقبل حياتهم . فقد شاهدوا الشرق الناهض ، وبهرتهم حضارته ، وانتفعوا بكثير من معارفه وعلومه ، وافادوا من فنونه ووسائل عمرانه ، وقد ساعد هذا كله على التعجيل فى يقظة الغرب ، وانبعاثه ، كما يعترف بذلك مؤرخو الحضارات من الغربيين انفسهم . وعلى الرغم من افادة الغرب من الشرق المسلم ، ومن العرب الذين غزو الاندلس واقاموا فيها مدنية زاهية ، فقد بقيت « الروح الصليبية » مسيطرة على العقل الغربى عموما باستثناء بعض العقول النيرة المنصفة التى استطاعت ان تتحرر من اسار التعصب المقيت ، فاعترفت بفضائل الاسلام ، وانصفت العرب ، ولو بعض الانصاف .

وفى العصور الحديثة كانت الغلبة للغرب الذى استطاع ان يطور حياته ونظمه باستخدام العلم التجريبى ، وان يرفع مستواه العقلى والاجتماعى والاقتصادى ، حين بقى الشرق المسلم ـ على العموم ـ فى غفلة يرزح تحت أعباء الماضى ، ويتخبط فى مذهبية ضيقة ، ويعانى من جبرية مستسلمة ، ويرزح تحت نير فئات حاكمة ظالمة قسرته على البقاء على حالته المشينة ليتأتى لها ان تشبع نهمها ، وترضى غرائزها وشهواتها . وقد اهتبل الغربيون هذا الوضع المساعد ، فغزو الشرق فى عقر داره من جديد . وكان من الطبيعى ان يتخذ الغرب من رجال الدين ، ومن التعصب الدينى ، وسيلة نافعة لتحقيق غاياته . فصار المبشرون طلائع التجار ، وأصبح التجار

وسيلة تعبد الطريق أمام ساسة الاستعمار وجنوده . وقد زاد هذا فى ابقاء صورة الاسلام فى عقول الغربيين ممسوخة كما توارثوها عن الصليبين ان لم يزيدوها مسخا وتشويها ، وكان من الطبيعى أيضا ان ينشط المبشرون ، باخلاص أو دون اخلاص ، للكيد للاسلام ، والافتراء عليه من جديد ، وتاريخ البعثات التبشرية زاخر بما يوضح هذا الامر ، ونحيل من يود الاستزادة من هذا الموضوع الى كتاب « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » لمؤلفيه الفاضلين الدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ .

وقد كان لسلوك المسلمين فى الازمنة المتأخرة ـ وهم من نعرف بعدا عن روح الاسلام الحق ـ شأن فى زيادة تلك الصورة الشوهاء بشاعة ، فزعم كثير من الغربيين بأن المسلمين المتأخرين ، الجاهلين ، الكسالى ، يعكسون الاسلام الذى يدعو للتقدم ، والعلم ، والعمل . ولم يستطع معظم الغربيين ان يميزوا الاسلام ، من حيث هو دين وحضارة وفلسفة وشريعة ، عن المسلمين ، من حيث هم بشر يخضعون لعوامل عديدة تبعدهم عن الاسلام الصحيح ، وليس لمعظمهم صلة به غير التسمية ، والنسبة الجغرافية ...

على ان عاملا جديدا فعالا كان له شأن كبير ، فى وفرة الافتراء على الاسلام فى الازمان المتأخرة واعنى به « النشاط الصهيونى » الذى استخدم الطباعة ، والصحافة ، وموجات الاثير ،

وأفلام السينما ، ومحطات التلفزيون ، وغير ذلك من وسائل النشر ، والعلانية والتثقيف الشعبى والتسلية والتلهية . وصارت الصهيونية تستعين لتحقيق إربها بعقول جبارة قادرة على الكيد الماكر الذى يتسلل الى العقول ، ويمازج الانفس بيسر واطمئنان ، حتى لا يكاد يشعر بخطره الا الاقلون ممن هم فوق الرجل الاعتيادى فطنة وايثاراً للحقيقة . ومعلوم ان اليهود يملكون من هذه الوسائل الشيء الكثير ، بل انهم ليكادون يسيطرون عليها - فى بعض الاقطار - سيطرة تامة لا تبقى مجالا لمنافسة منافس . وقد وفقوا بهذا السلاح الرهيب الى بث السموم ، وتشويه الحقائق حول العروبة والاسلام . وسيزداد خطر هذا السلاح بازدياد مطامح الصهيونية التى تهدف الى اقامة دولة يهودية كبرى فى هذا الجزء من العالم الذى يسميه الغربيون « بالشرق الاوسط » ، والذى هو موطن العروبة وموئل الاسلام ، وليست « اسرائيل اليوم » الا نقطة ارتكاز وتجمع أو رأس جسر كما يقول العسكريون ...

هذه بعض أسباب الكيد للاسلام ودواعى الافتراء عليه ولو اننى حاولت الاسهاب فى شرحها لدعانى ذلك الى بحث مستفيض يخرجنى عن طبيعة هذا البحث الموجز .

ولكن شيئا آخر أود ان أعلنه بصراحة واخلاص ، وهو انه كلما ازدادت صلتى بالغربيين ، وكثرت أسفارى فى أقطارهم

فى أوربا أو أمريكا ، وازداد تعمقى فى دراسة أحوالهم الاجتماعية والثقافية ، بدا لي واضحاً مقدار الخطر الذى تعرضنا اليه بسبب هذه الصورة الظالمة التى صورتها « الروح الصليبية » للأسلام ، وغذتها « الصهيونية » ـ وهى ليست الا مظهراً من مظاهر الصليبية المقنعة بمعنى أن الكثيرين من مؤيدى الصهيونية من ساسة الغرب وقادته يصدرون فى الواقع فى مؤازرتهم للصهيونية عن الروح الصليبية القائمة على مقت الاسلام ، والتقليل من شأن العرب .

وكنت أبصر الدهشة والاستغراب باديين على وجوه الغربيين حينما يتاح لهم ان يعرفوا شيئا جديداً عن الاسلام غير ما وقر فى أذهانهم عن طريق المبشرين والمتعصبين والصهيونيين ، وان كثيرا من الغربيين قد تغيرت آراؤهم تغييرا كليا حينما تجلت لهم الحقائق الناصعة على وجهها الصحيح .

ولعل من المفيد فى مختتم هذا البحث ان أقص القصة التالية التى حدثت لي فعلا قبل فترة ليست قصيرة من الزمن ...

كانت الكلية التى انتسب اليها « كلية الملك » فى « جامعة لندن » قد احتفظت ببعض روحها المسيحية الانكليكانية القديمة ، وكان من مظاهر تلك الروح الدينية دعوة بعض أساتذة اللاهوت ورجال الدين المسيحى لالقاء سلسلة محاضرات فى أسبوع دينى ينظمونه كل سنة دراسية ويرغبون الطلاب ، من مختلف العناصر والاديان والدراسات ، بالاستماع اليها . وقد حضرت احدى

تلك المحاضرات وكان عنوانها « الفضيلة فى المسيحية » وقد حاضر المحاضر فى موضوعه بأسلوب شيق طريف ، وضرب أمثلة ممتعة مستساغة . وكانت العادة انهم يجتمعون فى صالة كبيرة بعد المحاضرة لتناول الشاى ثم المناقشة فى موضوع المحاضرة ، وتبادل الآراء حول شتى الامور الدينية . وفى أثناء المناقشة سأل طالب انكليزى المحاضر هذا السؤال : كيف ندعو للمسيحية ونحببها للناس ؟ فأجابه المحاضر بأن نظهر فضائلها ، ونشرح تلك الفضائل . فقام الطالب ثانية وسأل : هل لك ان تضرب لي مثلا عمليا ؟ فأجابه المحاضر من فوره : خذ موضوع المسائل الجنسية مثلا وأنظر الى رفعة المسيحية فيها « وحطة الاسلام » واتخذ من ذلك وسيلة لنشر المسيحية . واكتفى الطالب الانكليزى بهذا المثل العملى ، والشرح الذى حسبه حقا مقنعا . عندئذ رفعت يدي استأذن المحاضر وقلت له : هل لك ان تبين لى ما سميته « بحطة الاسلام » فى موضوع المسائل الجنسية ؟ فلما ابصرنى وسمع لهجتى أدرك اننى مسلم فقال مسرعاً : اعتذر عما بدر منى ، لأني فى الحقيقة لا أعرف عن الاسلام شيئاً . فقمت ثانية وقلت له : ألم يكن من الاجدر بك وقد حاضرتنا هذا اليوم عن الفضيلة ، ان لا تتهم الاسلام بالحطة حتى تعرفه ؟ فقال بلى ، وانى لاكرر اعتذارى عما صدر عنى . فوقفت مرة أخرى وقلت له : أليس من المناسب ، وقد اعترفت بجهلك الاسلام ، ان تسمح لي بشرح

احكامه فى هـذا الشأن وقـد صار موضعا للتساؤل ؟ فأذن لي ،
وتكلمت خلال بضع دقائق بما اسعفتنى به البديهة ، وشرحت لهم
احكام الزواج فى الاسلام ، وحكمة تعـدد الزوجات ، ومداه ،
وذكرت شيئا عن الطلاق وبعض المسـائل الاخرى التى كثيرا
ما يجعلهـا المسـيحيون موضـوعات لغمـز الاسـلام • وكنت
أشعر بوضوح تأثير كلامى فى الحضار ـ وكانوا يعدون بالمئات
من الطـلاب والطالبات ـ حتى خشى المحاضر ان تستحيل الندوة
للدعاية الاسلامية لا للتبشير المسيحى • وعندئذ قال لي : أليس
من الافضل ان نحدد ساعة نتبادل فيها الرأى بيننا بصورة خاصة
فأجبته الى مطلبه • وفى الساعة المحددة من اليوم التالى التقينا ودار
بيننا حديث طويل كان ملخصه انه شرح لي الفضـائل المسيحية
وأهدافها الروحيـة بأسلوب لطيف • فقلت له اننى لا أجـد فى
اسـلامى ما يمنعنى من قبـول ما ذكرت ، بل قمت اؤيد بعض
أقواله بآيات قرآنية وأحاديث نبوية صرت اترجمها آنيا ، فسر
بهذا التوافق بين المسيحية والاسلام • ولـكننى وجهت له أخيراً
سؤالا رجوته أن يجيبنى عنه وهو طبيعة الاله فى المسيحية • هنا
أخذ يجمجم ولا يفصح ، ويكرر القول بأن هذه مسألة اعتقادية
لابد من التسليم بها دون مناقشة • وعند ذاك قلت له : ما قولك
فى دين يقر الفضائل التى شرحتها كلها ومع ذلك يكتفى من

الانسان ان يصور إلهه ـ وهو إله الناس جميعا ـ هذا التصوير : انه منزه عن الجرم ، والشكل ، واللون ، والعدد ، ومع ذلك فهو فى كل مكان ، وان كان لا يحيطه المكان ، وفى كل زمان وان كان لا يحده الزمان ، انه فى الضمير الحى اليقظ ، وهو المحصى لخلجات النفس ، وما تخفى الصدور ، وخير الناس عنده من ينفع الناس ، اكرمهم اتقاهم . وليست « الرحمة » و « المحبة » و « العدل » الا بعض صفاته ، وليس « الحق » ، و « السلام » ، و « البر » ، الا بعض أسمائه الحسنى . وما كدت أتم كلامى الا وابتدرنى قائلا وعلامات الاستغراب بادية على محياه : أحق هذا هو الاسلام ؟ ، قلت : بلى انه الاسلام الذى تجهلونه ، فاطرق لحظة وكأن لسان حاله كان ينطق بأفصح بيان : ما أشد ظلمنا لهذا الدين ، وما أعظم افتراءنا عليه . ثم افترقنا ، ولست أعلم على وجه اليقين ماذا كان قد استقر بخلده ، ولكننى كنت أردد فى نفسى :

« وسلام على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

« العرب والمسلمون اليوم[1] »

هذا الحديث اعد ليذاع فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الاول . ولـكن قضى الله بمشيئته ، ولا مرد لقضائه ، ان يشغل العراقيين حكومة وشعبا فى ذلك اليوم بمصاب صرفهم ، وصرف دار الاذاعة ، عن كل ما سواه . ولـكن المناسبة لألقائه لم تزل قائمة ، خاصة وشهر ربيع الاول لم ينصرم بعد .

وهذا الشهر ، من بين شهور السنة ، خليق ان نتذكره ، وحري بالناس جميعاً ان يحتفلوا فيه بميلاد النبي العظيم . ولقد قلت الناس ولم أقل المسلمين ، على وجه التخصيص ، لاني أعتقد بأن الناس جميعا ، بغض النظر عن أديانهم وأجناسهم ، خليقون بتكريم هذه الذكرى وتعظيمها ؛ وأى ذكرى أعظم وأجل من ولادة عبقرى فذ ، ومنقذ كبير ، ورسول أمين ، بعثه الله هاديا للصـراط السوى ، وجعله نوراً لـكشف حجب هـذا الـكون المدلهم ، وبلسماً يواسى جراح الانسانية الدامية ، وصيّر حيـاته ـ من يوم مولده الشـريف الى ان اصـطفاه الى جواره ـ عبرة صادقة ، وذكرى طيبة ، وأسوة حسنة .

وعنـدى أن الحديث فى سـيرة النبى ، والبحث فى مظاهر

---

(١) أذيع هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية بتاريخ ٢٧ـ١٢ـ١٩٥٠ بمناسبة شهر ربيع الأول ، شهر ميلاد الرسول .

عظمته ، والكشف عن أسرار عبقريته ، والتبسط فى سرد معجزاته وفضائله وصفاته ، وعرض مشاهد بطولته ، وصدق رجولته ، وصادق جهاده ، قد أصبح من نافلة القول ، والحديث المعاد ، ما لم نتخذ من ذلك عبرة ، ونقتبس من سيرته سنة ننتهجها فى حياتنا العامة والخاصة كأفراد وكجماعات .

وجدير بنا ـ فى ذكرى ميلاد الرسول ـ ان ننظر فى حال العرب والمسلمين لنرى الفرق الهائل بين ما أراده لنا نبينا وما نحن فيه . وحرىّ بنا ان نتذكر أمسنا ، ونبصر يومنا ، ونفكر فى غدنا ، ليستبين الطريق السوى الذى علينا ان نسلكه ، ولنتدارك ما فاتنا ، وندرك مجدنا ، ونبلغ غاياتنا . وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ما لا نضل معه ؛ ترك فينا كتاب الله وسنة نبيه ، ولكنا ضللنا ، وأى ضلال ، فقد القينا كتاب الله ورائنا ظهريا ، واهملنا سنة نبينا اهمالا مشينا ؛ جاءنا بالتوحيد الخالص النزيه ، ولكن معالم الشرك متجلية فى كثير من أقوالنا وأفعالنا وتصرفاتنا . أمرنا بالوحدة ، ولكنا فرقنا ديننا شيعا وأحزابا . دعانا الى مكارم الاخلاق ، وأكثر العرب والمسلمين اليوم أبعد أهل الارض عن الاخلاق الكريمة . حثنا على السعى والجد ، فقصرنا وتواكلنا وزعمنا ان ذلك بعض ما يأمر به ديننا . حبب لنا العلم وحسب بعضنا ان العلم نصوص معينة ، وكتب مخصوصة ، وتهاليل وأدعية وأوراد ، ولا شىء غير ذلك . وجهنا

للنظر فى ملكوت السموات والارض ، واكتشاف أسرار الكون ونواميس الطبيعة ، ولكنا جمدنا وضاقت صدورنا بالنظر البعيد ، وحجبت أبصارنا عن التطلع الى الافق الواسع . حذرنا من عدونا وأوصانا ان نعد له ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل ، فركن ذوو الشأن فينا للاجنبى ، واكتفوا بالتصريحات الفارغة ، والخطب الجوفاء ، والمظاهر الكاذبة ؛ جعل الحكم شورى ولكن بعضنا قد استبد ببعض فأضعنا معالم الحكومة الفاضلة والمجتمع الحر ...

ألا وان حال المسلمين عامة ، والعرب خاصة ، اسوأ حال .
ألا وان مما يحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يرى أمته واتباعه فى فرقتهم المشينة ، وجهلهم المطبق ، وجاهليتهم السوداء التى هى شر من جاهليتهم الاولى . فقد كانوا فى جاهليتهم تلك يعبدون أوثانا لتقربهم الى الله زلفى ، وهم اليوم يعبدون أوثانا ، من طراز جديد ، لنيل الرتب والمناصب والمتاع الزائل . وقد كانوا من قبل ، وعلى الرغم من جاهليتهم ، يحمون الذمار ، ولا يقيمون على ضيم . وهم بأسلامهم المزعوم قد ضاعت حميتهم ورضوا بالهوان ، استبد الاجنبى بهم ، وتجرأت عليهم أذل الامم فاستولت على أوطانهم وديارهم ، وشتت مآت الالوف من اخوانهم الذين لا يزالون يعيشون فى العراء ، أو ما يشبه العراء ، من خيام مهلهلة ، وكهوف موحشة ، وملاجىء متهدمة ...

ولا ينجينا مما نحن فيه الا دولة قوية ، لان الله قد يزع

بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، دولة عصرية تقدمية تؤمن بروح الاسلام ايمانا صادقا ولا نكتفى بان يصرح دستورها بأن دينها الاسلام ، أو أن دين رئيسها الاسلام ، ولا ضير عليها بعد ذلك ان تبيح البغاء علنا ، وتجعل قسطا من وارداتها من مكس الخمور وريع الميسر ، وترى ما آت الالوف من الجياع والعراة والمشردين والعاطلين ، وتبصر الى جانبهم ما آت وألوفا من الموسرين البطرين المسرفين ، ولا ترى ان من حقها ، بل من واجبها ، أن تاخذ من أموال هؤلاء لتسد عوز اولئك • نريدها دولة أسلامية لا كهانة فيها ، اشتراكية ولـكنها فى منجاة من غلواء الشيوعية ، شورية ولـكنها مبرأة من نفاق الديمقراطية ، حرة ولـكنها بعيدة عن تدني الفوضوية • الناس فيهـا أحرار ، كمـا ولدتهم امهاتهم ، سواسية كأسنان المشط ، ليس لاحد على احد امتياز الا بالتقوى • وهل التقوى فى اجل وأوسع معانيها الا مراعاة حدود الله ، من تجنب الـكذب والنفاق والموبقات ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل لخير الجماعة وصالحها ؟؟

ولن تتحقق تلـكم الدولة الفاضلة الا اذا وجـد أول الامر حزب أو كتلة تؤمن بالاسـلام ايمـان صـدق ، وتدرك حقيقته ادراكا تاما ، وتعمـل ، فى أسلوب العصر ووسـائله ، فى جـد وأخلاص لتحقيق اهدافه ومثله ، لا تلين ولا تتردد ولا تهاب • ولن يتحقق هذا الا اذا وجد رجل من حوله رجال اكتملت بهم

معالم الرجولة ، وتجلت فيهم اخلاقهـا ، من صـلابة فى الحق ، جرأة فى الصـدق ، جـدوا وثابروا وصبروا ، لا تغريهم الرتب والمناصب أو ملذات الحياة ، ولا تخيفهم السجون والمعتقلات أو أعواد المشانق ، يسعون لتحقيق أهدافهم أو يهلـكون فى سبيلها .

ولن يوجد ذلك الرجل واولئك الرجال الا اذا بشرت طبقة نيرة بتعاليم الاسـلام الصحيح ، فأيقظت النفوس الراقـدة ، وهتكت الحجب عن القلوب الغلف ، واعلنت فى الجيل الصاعد الناهض ، أن لنا رسالة لم تزل قائمة ، وأن صلاحنا ـ وصلاح العالم أيضا ـ مقرون بتلك الرسالة ، وأن لا سبيل الى الحياة الفاضلة الـكريمة الا اذا آمنا بالاسلام ايمانا حقا جديدا ، آمنا به بقلوبنا ، وعملنا على جعله عقيدتنـا التى لا نزيغ عنها ، وفلسـفتنا التى ليس لنا وراءها فلسـفة . وليس فيمـا أقول غلو أو دعوة للانصراف عن العـالم وحضـارته ومقوماته الحديثة ؛ فمعظم ما فى هـذا العالم من نظم ومبادىء واسس سليمة لا تتعارض مع الاسلام فى قليل أو كثير ، بل أن الاسلام الصحيح يقرها ويؤيدها .

ألم تقم الحضـارة الحديثـة على العلم والصـناعة والتعـاون والتضامن والنظر الحر ، وهل فى نظم العالم ودساتيره ما يدعو للعلم والصناعة والتعاون والتضامن والحرية أوسع من الاسلام ؟ ولـكنا جهلنا الاسلام فحسبناه طقوسـا ومراسيم دينية وكفى ، وانصرافا عن الحياة ، وضوابط لا تصلح لغير المتزمتين أو شيوخ

الطرق ، وأئمة المساجد . ونسينا أن الاسلام دين ودولة ، وفلسفة وحضارة ، وأنه الى قوته الروحية الهائلة ، قوة مادية صالحة للبقاء ، قادرة على الابداع والتجديد ومسايرة مقتضيات الحياة ...

لو كان فى العالم اليوم دولة واحدة أسلامية ، بكل ما فى الاسلام من معان ، مؤمنة ، كما يجب ان يكون الايمان الصادق ، لما رضي بما صار اليه العرب والمسلمين ، غثاء كغثاء السيل ، مشتتين والاسلام دين التوحيد ، متنافرين والاسلام دين التآخى ، مستضعفين اذلاء ، والاسلام دين العزة والكرامة .

علينا ان نعتقد بهذا ونعلنه بكل جرأة وصراحة : وهو أن لا سبيل لانقاذنا مما نحن فيه من سوء ، ولا وسيلة لنجاتنا من مخاطر الامواج المتلاطمة من حولنا ؛ أمواج الغرب الذى يريدنا ان نبقى على حالنا نرزح تحت اعباء استعماره السياسى والاقتصادى والفكرى ، ونرسف بمشيئته تحت اغلال الصهيونية الطامحة الباغية المتنمرة ، وأمواج الشرق العنيفة التى توشك ان تجرفنا وتحطم كياننا وتفقدنا اجل ميزاتنا ، الا ببعث الاسلام وسلوك الطريق السوى الذى سلكه « محمد » وخطه لنا .

فهل تكون ذكرى مولده الشريف حافزا لايقاظ الهمم ، وبعث النفوس ، فنصبح احرياء بشرف الاسلام وعز العروبة ؟؟

---

(٥)

في ذكرى ليلة القدر[١]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ففى مثل هذه الليلة على القول الراجح ، أو فى احدى ليالى الوتر ، لا على وجه التعيين ، من الليالى العشر الاواخر من رمضان ، على قول آخر ، أو فى ليلة لا يعلمها على وجه التحقيق الا الله من ليالى شهر رمضان المبارك ، منذ نيف وسبعين وثلاثمائة والف سنة قدر الله لهذه الامة ان ينتشلها من الجهالة ، ويخلصها من الضلالة ، ويهديها الصراط السويّ ، ويبلغها محجةَ النور والامن والسلام ، ليجعل منها بذلك ، وبعد ذلك ، خير أمة اخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ويحملها أمانةً لم تتهيأ أُمة من قبل لحملها : امانة نشر مبدأ التوحيد الخالص - بعد ان رانت على قلوب شعوب الارض جميعا ادران الشرك - ، ودعوة الحق المطلق - الذى يكفل للبشر سعادة الدنيا والآخرة ...

اجل منذ نحو اربعة عشر قرنا أنزل الله من علياء سمائه كتابا لهداية اهل الارض جميعا ، تنزل به الروح الامين ، بوحى من عند الله الكريم على نبيه الامين المأمون ، وجعله دستورا كاملا خالدا متينا غير ذى عوج ، ضمن فيه لنا عز الدنيا ، ومثوبة الآخرة ، وخاطب به الضمير الانسانى ، وحث على التفكير ،

(١) القى هذا الخطاب فى الحفل الذى اقامته جمعية الآداب الاسلامية ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ١٣٦٧ هـ فى قاعة الشعب .

والنظر الصحيح ، وجعل التفكير فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار من وسائل الايمان والهداية . وقد اوحى الله بهذا الكتاب الكريم الى نبيه العظيم منجما حسب مقتضيات الاحوال ، ومستلزمات الاحداث وكان بدء نزوله فى شهر رمضان المبارك .. « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وقد احتوى ، بالاضافة الى قصص العبرة البالغة ، وحوادث الامم الغابرة ، وانباء الرسل والانبياء السالفين ، احكاماً تشريعية ، وقواعد خلقية ، ومبادىء اجتماعية وسياسية ، وآدابا معاشية . وفى الخلاصة لقد فصّلت احكامه التى تقف بالمرء عند الحق ، وتبعده عن الباطل ، وترشده الى سبل الخير والفلاح .

حقا ان ليلة نزول القرآن ليلةٌ عظيمة الشأن ، رفيعةُ القدر ، حاسمة فى تأريخ الانسانية ، « انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . امراً من عندنا انا كنا مرسلين » فيها ثبّت الله دينه الحق ، « ان الدين عند الله الاسلام » ، ووضع دستور دعوة رسوله المصطفى . فايُ ليلة من ليالى الدهر المديدة أفضل من تلك الليلة ؟ وأى شهر من شهور الزمن العديدة اجل من شهر القرآن ؟ وان هذه الليلة لأفضل عند الله وعند المؤمنين من عباد الف شهر ، بل انها لأفضل من آلاف الشهور والاعوام ... اذ بها فرق الله بين الحق والباطل ، والنور والظلام ،

والهداية والضلال ، وبها أشرقت شمس الاسلام فى غار حراء أولا ، ثم شملت بطاح مكة ، ومجالات جزيرة العرب ، ثم عمت المعمورة بسناها الوهاج . وفى تلك الليلة القدسية المباركة بدأت دعوة الحق ، والخير ، والصدق ، والجمال ...

وقد اصطفى الله محمداً النبي الأمي من الامة الأمية لتبليغ هذه الرسالة ونشرها « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . وانزل اليهم كتابا عربيا مبينا ، رفع فيه ذكرهم ، وخلد لغتهم ، واعلن فى الكون قدرهم . « لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون » .

أفليس من حق العرب ، بل ، أفليس من واجب العرب ، والمسلمين جميعا ان يقدسوا هذه الليلة ويعظموا شأنها ، ويحيوا ذكراها ، ويعمروا ساعاتها ودقائقها وثوانيها بالحمد الخالص ، والثناء الجزيل ، للذات الالهية التى انقذتهم من دياجير الجهالة والضلالة ورفعتهم الى أعلى آفاق السؤدد والمعرفة والايمان ؟

وانه لمن حق النفوس المؤمنة ان تقف فى مثل هذه الليلة المباركة وقلوبها واجفة ، وابصارها خاشعة ، ترجو رحمة ربها ورضوانه ، وهى تودع شهراً كريما زاخراً بفنون العبادة الخالصة ، والتقوى التى لا تشوبها شائبة ، والرياضة النفسية التى امتحن الله

بها عباده الذين تطهرت افئدتهم من ادران هذه الحياة واوضارها ، وارتفعت مشاعرهم الى مستوى لا ترقى اليه غير الانفس العلوية الكريمة التى تدرك ما فى الصوم من حكمة ، وتعلم انه لم يكن - كما يزعم بعض الجهال - تعذيبا للنفس ، وايذاءً للبدن ، وعناءً ماديا لا خير فيه . بل ان الصوم هو آية الشكر ، على نعمة القرآن ، وانه فى الوقت ذاته وسيلة فعالة لتطهير النفس وتهذيب الضمير ، وتنمية الارادة والعزيمة ...

ومن أعظم - فى مقاييس العظمة الحقة - من مسلم يمتنع راضيا مختارا طوال هذا الشهر عن الطعام والشراب والملذات المشروعة بوحى من ضميره وعقيدته ؟؟ لقد جهل المسلمون حكمة الصوم كما جهلوا حكمة أكثر العبادات الاخرى فتمسكوا بظواهرها ولم يدركوا لبابها وفحواها ، فأضاعو الجوهر وحرصوا على العرض ...

ليس الصوم مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ساعات معينة من النهار ، فى شهر معين من السنة القمرية - فكم من صائم ليس له من صومه الا الجوع' والعطش - بل انه قبل كل شيء رياضة نفسية ، ووسيلة للتهذيب الذاتى ، والصبر على المشاق وعند الملمات ، لكى يصبح المسلم ولا شيء فى هذا الكون قادر على قهره ، لان من استطاع ان يكبح جماح نفسه الامارة بالسوء ، وتمكن من السيطرة على عواطفه ونزواته ، حري ان

لا يقهره أحد ، فالصوم هو ارادة القوة فى هـذا الـكون الذى قضت نواميسه ان لا يعيش فيه الضعفاء ، والصوم جنة تحصن نفس المؤمن فـلا يركـن الى المغـريات ، ولا يسـتجيب لداعي الشهوات ... وقد أراد المشرع الاعظم بالصوم وبالعبادات الاخرى ان يجعل من كل مسلم بطلا أو انسانا كاملا ـ سو برمان ـ كما يقول بعض الفلاسفة المحدثين ، صفت نفسـه من الادران ، وتسامت عزيمته عن الصغائر ، وعظمت همته وتعالت ، فهو لا يستكين ، ولا يخشى فى هذا الـكون مخلوقا ، مهما عظم شأنه ، لان خشية الله وطاعته لا تبقي فى قلبـه مجالا لخشية احـد غيره . والمؤمن الصادق الايمان لا يكذب ، ولا ينافق ، ولا يداجى ، ولا يخشى فى الحق لومة لائم .

هذه بعض غايات الصوم وحكمته .. أقول هذا وأنا أعلم ـ والالم يحز فى نفسى ـ ان أكثر المسلمين اليوم ليسوا كما يجب ان يكون عليه المسلمون . بل ان أكثر الصائمين ـ ويا للأسف ـ لم يدركوا غايات الصـوم وحكمة تشـريعه ، فتراهم يصومون بوحى من العـادة الجارية ، أو بتأثير البيئة الموروثة ، أو لاتخاذه وسيلة مظهر ورياء لا اثر لها فى أرواحهم ، وضمائرهم . ولذلك نرى المسلمين اليوم ليسوا كمـا أراهم الله ان يكونوا : مجموعة من الابطال الذين قهروا انفسهم ، فقهروا بذلك العالم ؛ وخشوا الله ، فخشيتهم الامم ...

اجل لقد أصبح المسلمون اليوم وهم كسائر الناس شأناً ، بل أنهم دون أكثر الامم قدراً ؛ فقد تفشى بينهم الـكذب ورسولهم يقول « المسلم لا يكذب » ، وعم فيهم الجهل وقرآنهم ينادى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وتبلدت حواسهم فلم يعودوا يتفكرون فى خلق السـموات والارض ، ولا فى خلق انفسهم والله يقول « وفى انفسكم أفلا تبصرون » .

كسلوا ونسوا ان الله يكره العبد البطال ، وتقاعدوا عن الكسب الحلال وتواكلوا وزعموا انهم متوكلون . علمهم الرسول العظيم سبيل المجد والحياة والعزة فى الحياة الدنيا ، وأراهم طريق الفوز والسعادة والمثوبة فى الحياة الاخرى ، وأوصاهم ان يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، وان يعملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غداً . ولـكن المسلمين ضاعوا بين افراط وتفريط : فريق يكنزون الذهب والفضة ، ويجمعون المال لأجل المال ، ولا ينفقونه فى سبيل الله وخير الامة بل لارضـاء شهواتهم الدنيئة ، وملذاتهم الفانية ، ومن حولهم آلاف الجياع والمحتاجين من بنى جلدتهم ، واخوانهم فى الدين ، لا تأخذهم بهم شفقة ولا رحمة ، ماتت ضمائرهم ، وانعدم الوازع الدينى والخلقى فى قلوبهم ، ومن العبث ان يظن ان القانون وسيلة" لاصـلاح امثـال هؤلاء ؛ ذلك لان القانون لا سلطان له على النفوس والضمائر ، وهو فى الغالب الاعم مادة مرنة بأيدى واضعيه ، يصوغونه حسب رغبتهم ، ويؤولونه وفق

مآربهم . والمطبقون له يعرفون بوحى من مصالحهم كيف يتحايلون على نصوصه ، وكيف يتلمسون الحيل والمخارج والاستثناآت للتخلص من أحكامه وقيوده .

وفريق آخر من المسلمين جهلوا احكام القرآن ، ولم يدركوا أسرار السنة النبوية ادراكا صحيحا ؛ فانصرفوا عن هذه الحياة وكأن الله قد خلقنا عبثا ، وافرطوا فى ذم الدنيا واحتقارها ، وماتوا قبل ان يموتوا ، وزهدوا زهد الضعيف العاجز ، لا زهد المقتدر المتعفف ، فناموا والامم من حولهم ايقاظ ؛ وتوانوا والزمن يسير سراعاً ، وصاروا عالة على غيرهم ، وهم يزعمون أنهم هم المؤمنون حقا المتكلون على الله العلي القدير ، وقد نسوا ان دعاء المتقين الصالحين « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » ، ونسوا ان الله تعالى يقول فى محكم كتابه العزيز بأسلوب الاستفهام الاستنكارى وهو من أقوى صيغ التعبير « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وفريق ثالث من المسلمين اضاعوا الدارين فلا عملوا لآخرتهم ولا استفادوا من دنياهم ، فهم من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ...

كان المسلمون بالامس اعزة كرماء مهيبى الجانب ، تلتمس الامم ودّهم ، وتخشى بأسهم ، ويركن الضعيف الى كنفهم ، ويلوذ العانى بجوارهم ، فأصبحوا اليوم أذلة فى بلادهم ،

مشردين فى أوطانهم ، تداعت عليهم الامم كما تتداعى الأكلة على قصعة الثريد ، وليسوا هم اليوم قلة ، ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، لا يخشى شرهم ، ولا يرجى خيرهم . هانت عليهم نفوسهم ، فهانت اقدارهم عند الناس ، تركوا قواعد دينهم ، والقوا كتاب الله وراءهم ظهرياً ، واهملوا وصايا نبيهم ، فذلوا ، وتعاظمت عليهم الامم حتى شعوب الارض الذليلة ، واستأسدت أمامهم الثعالب ، وأصبحوا سخرية الامم والاقوام . وصارت دول الغرب تتساوم على بلادهم ، واستحالوا كالرقيق الذليل لا رأى لهم ولا اختيار ...

لو ان عرب اليوم هم عرب الامس الذين يعرفهم الغرب حق المعرفة ، ولو ان المسلمين هم المسلمون الذين زانوا الدهر بفضائلهم ، لما تجرأت هيئة الامم على العبث بهم والاستهانة بحقوقهم الى هذا الحد الذى لم تبق فى اللغة كلمة تعبر عنه تعبيرا دقيقا : فهو دون الذل والامتهان والاحتقار ...

اجل لو علم الغرب ان العرب اليوم هم العرب الذين كان منهم محمد‌ٌ وأبو بكر وعمرُ وعليٌ وخالدٌ وحمزة وسعد وأبو عبيده والمثنى لما استهانوا بهم الى هذا الحد من الاستهانة ، ولكنهم يعلمون ان الحال قد تغيرت ، وان العرب غيرُ العربِ وان المسلمين غيرُ المسلمين وانه لم يبق من تلك المثل الرفيعة الا اسماؤها ، واما معانيها فقد زالت أو هى فى طريق الزوال ...

ورمضـان ! أتدرون ان الغربيين كانوا الى الامس القريب أخشى ما يخشون المسلمين فى هذا الشهر ؛ يوم كان لهذا الشهر فى نفوسـهم جلاله ووقاره واحترامه ؟ فقـد كان شهر رمضـان - كما ينبئنا التأريخ - شهر الثورات ودعوات التحرر والقيام ضد الظلم والاستعمار فاين رمضان اليوم من رمضان الامس ؟ واين عرب اليوم من اولئك العرب الاباة ؟ واين المسلمون من اولئك المسلمين الابطال الغزاة ؟ اين الذين يشرون انفسهم ابتغاء مرضاة الله ، ويجاهدون فى الله حق جهاده ، ولا يستكينون للظلم ، ولا يرضون بالهوان ؟

أفمن الجائز ان تتخاذل سبعُ دول عربية أمام دويلة هزيلة مصطنعة ولدت بمكر الانكليز وحظت بتدليل الامريكان .

أمن المعقول حقا ان يعجز ثمانون مليونا من العرب يمدهم أربعمائة مليون من المسلمين تجاه سبعمائة ألف من شراذم العالم وحثالات الشعوب ؟

أفمن الجائز بلغـة الارقام والوقائع ان نغلب لو كنا مجدين حقا ، مؤمنين حقاً ، عاملين كما يعمل خصومنا ؟؟

ولـكن البون بيننا وبين عدونا ويا للأسف شـاسع ؛ هم متماسكون متحدون على باطلهم ، ونحن مشتتون متخاذلون فى نصرة حقنا ...

هم يصـممون ، ويحضـرون ، ويفعلون ، ونحن نتخيـل ،

ونقول ، ولا نعمل .

هم يريدون ان يؤسسوا ملك اسرائيل ويعيدوا بناء هيكل سليمان ، وفينا من لا يرى بأساً بزوال ملك العرب وفناء عز الاسلام ، ما دام هو محتفظا بلقب زائل ، أو منصب تافه ، أو متعة فانية ، ...

هم يعلمون ان الملك لا يؤسس الا على دعائم العلم ، والقوة ، والتنظيم ، ونحن ما زلنا نتخبط فى جهلنا ، ونتسكع فى ضعفنا ، ونقاسى من فوضى حياتنا السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ... قد تغير كل شيء وانعكست الآية وكأن قرآننا قد نزل فيهم ، فأعدوا لنا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ومن المدافع والرشاشات ، والدبابات ، والطائرات ، والبواخر . ونحن اكتفينا - الى حد بعيد - بالخطب الهزيلة ، والمؤتمرات العقيمة ، والاجتماعات الفاشلة ، والاحتجاجات المشينة ، والبيانات المتناقضة الواهية التى تصدر بين حين وآخر من هؤلاء الذين يسمونهم زعماء العرب وقادتهم .

أجل لقد انجلى الامر ، واتضح السبيل ، وتبين ان أمم الغرب قد تألبت علينا ، فعز الناصر ، وفقد المعين ، وكشفت اوربا وامريكا عن انيابها واظفارها ، وظهرت نواياهم سافرة عارية وهى تنم عن حقد دفين ، وبغض شديد موروث ، لم تخفف من شدته مئات السنين . فقد أعلنها الغرب صليبية جديدة ضد العرب

والمسلمين ، ولـكنها صليبية مسيحها « وايزمان » وحواريها ترومن وستالين ، وهدفها أوطانكم ، وديار كم ، وخيرات بلادكم ، والذهب الاسود الذى يجرى تحت تربتكم . فهل انتم مدركوا الخطر ومقدروه حق قدره ؟؟

هل تعلمون ان قيام دولة اسرائيل معناه ذلـكم الابدى ، واستعبادكم الدائم ، ومن وراء ذلك احتقار الاجيال ، ومسبة الاحفاد ، ولعنة التاريخ ؟ ...

اللهم اننا نعلم انك لن تغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، فاعنا اللهم بحرمة هذه الليلة المقدسة على تغيير ما بذات نفوسنا لنعود كما كنا .

اللهم اننا نعلم ان آخر هذه الامة لا يصلح الا بما صلح به اولها فمكنا من العودة الى سالف عزنا .

اللهم انا نسألك بك ولا نسألك بأحد غيرك ان ترفع هـذا الـكرب عنا ، وتعيننا على ان ندفع هذا الخزى والهوان الذى حل - من سوء فعلنا - بنا .

اللهم فيك رجاؤنا ، واليك اعتذارنا .. فأقل اللهم عثراتنا ، واجب دعواتنا ، وحقق أمانينا انك على ما تشاء قدير .

(٦)

خواطر تثيرها ذكرى العام الهجري[١]

ترددت كثيرا فى اجابة دعوة من طلب الي ان أقول كلمة بمناسبة العام الهجرى الجديد ، فى هذا الحفل الذى تقيمه جمعية الآداب الاسلامية فى الكرخ ، لاسباب أهمها ثلاثة :ـ

اولهما لانى ـ كما يقول الشاعر ـ في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء .

أجل ، لقد ملأت المصائب العظمى التى حلت بنا ، والحوادث الجسيمة التى مرت علينا ، والنكبات الفادحة التى أصابت العالمين الاسلامى والعربى فى العام المنصرم ، وفى مطلع هذا العام ، فم كل عربى أبى ، وكل مسلم غيور ، بالدم الاسود الخانق ، وشحنت قلبه بالقيح السام المميت ، فلم يعد يطيق النطق أو يحسن الكلام .

ولقد ترددت ـ ثانيا ـ لشعور خاص ، أخذ يقوى فى نفسى ، يوما بعد يوم ، وهو ان امثال هذه الحفلات التى تقيمها المؤسسات الدينية والاجتماعية بمناسبة العام الهجرى ، والمولد النبوى ، وليلة القدر ، ويوم بدر ، وما شاكل ذلك من الايام والاعياد ، لم تعد

---

(١) القى هذا الخطاب فى جامع الشيخ صندل ونقلته الاذاعة العراقية وذلك فى مساء يوم ٨ـ١١ـ١٩٤٨ .

ذات اثر كبير فى توجيه حياتنا الوجهة الصحيحة التى يجب ان يكون من واجب المفكرين والعاملين ان يوجهوا الناس اليها ...

قـد تكون امثال هـذه الحفلات ، وتلـكم الاجتماعات ، مفيدةً ـ من دون شك ـ لو انها احيت فينا شعورا ، أو بعثت أملاً ، أو ايقظت عزيمة ، أو أنارت سبيلاً ...

قد تكون تلـكم الحفلات والاجتماعات مفيدةً لو ان الحضّار حين ينتهون منها ، ويرجعون الى دورهم يشعرون بشىء جديد ، فيضعون خطة فى حياتهم مجدية ، أو يسلـكون فى عيشهم مسلـكا آخر غير الذى كانوا يسيرون عليه . اما ان تتردد على مسامعهم أقوال معـادة مكرورة وتعرض عليهم افـكار مقتبسة ليس فيهـا ابداع ولا تجديد ، تمر بهم وكأنها صيحة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، لا تصل الى قلوبهم ، ولا يكادون يذكرون من أمرها بعد ليلتهم شيئاً ... فذلك عنـدى اشـتغال بالعبث وحرى بنـا ان نتجنبه ...

ولقد ترددت ـ ثالثا ـ لانى اعتقد ان الناس قد سئموا هذا الاسلوب فى تخليد أيامنا العظيمة ، فقد ملوا الخطب ، والمواعظ ، والقصـائد ، وصـاروا يشـعرون ـ ومن حقهـم ذلك ـ اننـا بحـاجة الى شىء آخـر ، فقـد بحت الاصـوات ، ويبسـت الحناجر ، وملت الاسماع ، ولم تتغير أحوالنا الى أحسن مما نحن فيه ، بل لعلها قد ازدادت سوءاً واضطراباً . وفى الحق ان داءنا

قد أزمن ، وعز الدواء ، ولن يتحقق الشفاء بالاقوال ، وان كانت بليغة ، ولا بالمواعظ ، وان كانت بالغة ، ولا بالقصائد وان كانت عامرة رنانة .

نحن بحاجة الى علاج ناجع فعال ، فاين النطاسى الذى يصف الدواء ؟ واين الذين ينفذون ويفعلون ما يقولون ؟ ، اين الذين يسعون مخلصين فى تحقيق أفكارهم ، فيقتحمون الصعاب التى تعترض سبيلهم غير هيابين ولا وجلين ؟ اين الذين يسيرون صفاً واحداً ، متضامنين متآخين فى الله والوطن فيبذلون المال سخياً ، ويهرقون الدم الزكى رخيصا ، ويشرون انفسهم ابتغاء مرضاة الله ، ويجاهدون - فى سبيل الله والوطن - حق الجهاد ، ويهاجرون كما هاجر رسول الله وصحبه عليهم السلام ، ويقاتلون ، ويقتلون : وصيحاتهم المدوية : اما حياةٌ عزيزة كريمة ، وإما موتُ الشرف والمجد ، ثم اللحاق بالصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئكَ رفيقا ...

ها نحن اولاء نرى المنكر عن يميننا وعن شمالنا ، ومن امامنا ، وورائنا ، ومن فوقنا ، ومن اسفل منا ، ولا نكاد نحرك ساكنا ولقد أمرنا ان نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وقد اكتفى افاضلنا بأضعف الايمان ، يعوذلون ، ويحوقلون ويتمتمون بكلمات لا تكاد تسمعها آذانهم بله آذان الناس ، ثم تتحطم احساساتهم بين ثنايا

ضلوعهم ، وتذوب أفكارهم كما يذوب الثلج فى وهج الشمس ...

ان الخطب والله لجليل ، وان المصيبة لفادحة ، ولكنا ويا للأسف قد أصبحنا كالسكارى لا نسمع ما نقول ، وكالمخدرين لا نحس ما نلمس ، حيارى كقطيع الغنم الذى فقد راعيه ، لا ندرى ما نصنع ، ولا نعرف كيف نسير . لقد بلغ السيل الزبى ، وتكاد الطامة الكبرى تحل بنا ، وأصبح كياننا فى خطر جسيم ، وصارت أوطاننا ، واهلونا ، وعقيدتنا ، ومثلنا ، وكل عزيز لدينا ، مهدداً بالزوال والمسخ ، والابادة ...

لقد شغلنا انفسنا ـ أو تشاغلنا ـ بكل تافه حقير ، لا يجدى شروى نقير ، وتظاهرنا بالعمل ، ولم نعمل شيئاً ذا بال ، حسبنا ان المؤتمرات والاجتماعات ، والاحتجاجات ، والتصريحات ، والخطب ، والتهديدات ، والرحلات والسفرات ، تحل مشكلة من مشاكلنا ، وكان حري بنا ان ندرك بل أن يدرك أيضا أطفالنا ان ذلك عبث ما فوقه عبث ، وضلال ما بعده ضلال ... تمسكنا فى حياتنا بظواهر الامور ، وبقشور الاشياء ، وعرض المسائل ، وتركنا البواطن ، واللباب ، والجوهر . أسرفنا فى أموالنا على اتفه الحاجات ، وبددنا ثروات طائلة فى سبيل ملذاتنا وشهواتنا ، وقصرنا فى الضروريات ، ولم نعد شيئا لليوم العصيب ، وكأنما لم نسمع قوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط

الخيل ... تجاهلنا والزمن يمر سريعا ، ونحن نعلم ، او كان حرى بنا ان نعلم ، ان كل يوم يفلت منا ، بل كل ساعة ، تزيد فى قوة اعدائنا ويزداد فيها ضعفنا وتخاذلنا ويعمل فيها المرجفون لاشاعة اليأس والاستسلام والاستكانة فينا .

من ينظر اليوم الى الاقطار العربية والاسلامية فى آسيا وافريقيا يجدها كلها تقريبا فى حالة اضطراب ، وضيق ، واضطهاد ، فهذه الباكستان - أو الارض الطاهرة - وتلك مملكة حيدر آباد هل علمتم كيف دبر الانكليز بغدرهم الاعتداء عليهما اذ حرموا اهليهما من السلاح اللازم - خلافا لاحكام المعاهدات والمواثيق - واتاحوا بذلك فرصة نادرة لخصومهما للاغارة عليهما والاستيلاء على أوطانهما . وهل تعلمون ان هناك مئات الالوف من مسلمى كشمير هم الآن فى حالة تشرد وتعاسة . وتلكم اندونوسيا فقد طال كفاحها المرير ضد أخبث دولة استعمارية ، واشدها عتناً ؟ وهل ابصرتم كيف تواطأت دول الغرب اللئيمة فى هيئة الذئاب الضارية على حرية ذلك الشعب المناضل واستقلاله ، واضاعت عليه فرصة ثمينة للتخلص نهائيا من ربقة الهولندين وظلمهم ؟؟[1]

وهذا شعب الصين - وفيه بضع عشرات الملايين من المسلمين - هل تعلمون ما يجره عليه تنافس الدول العظمى من

---

(١) تغيرت الاحوال فى كثير من هذه الاقطار ونالت استقلالها ولكن يحسن بنا ان نتذكر ان هذا الخطاب كان قد القى عام ١٩٤٨ .

ويلات ، وخراب ، ونكبات ، تكاد تقضى عليه ؟ فروسيا الشيوعية
تريد ان تسيطر على موارده الهائلة ، وتعبىء قواه البشرية الجسيمة
لتستخدمها فى سياسة الفتح الحمراء ... وأمريكا الرأسمالية تريد
ان تجعل من هذه الامة العظيمة سوقا لمصنوعاتها ليتحكم الدولار
الامريكى ويعبث بأهلها أشد العبث ، ولتضرب سوراً جديداً حول
ذلك القطر العظيم حتى لا يلج اليه سواها ...

وتركية وايران أليس مصيرهما فى يد القدر ، وتطمح الدول
الكبرى فى الاستيلاء عليهما بشتى طرق الاستيلاء واساليبه ،
والحيلولة بينهما وبين الاتجاه الصحيح الذى يرغب فيه شعباهما
من التعاون الصادق والتحالف الودى مع بقية الاقطار الاسلامية .

والبلاد العربية هل انتم بحاجة الى من يطلعكم على ما هى
عليه من وضع مشين ، وما تعانيه شعوبها من ضيق ، فقد ضرب
الاجنبى قيداً حديدياً حول البلاد العربية ، واورثها الفقر ، والضيق
الاقتصادى ، وعمل على ان يباعد بين بنيها ، فلم تتحقق وحدتهم ،
بل لعل الضغائن والاحن قد سعرت فى صدورهم ، ولم تستطع
أكثر الاقطار العربية الى اليوم ان تتخلص بعد من ويلات الاستعمار
بالرغم من حدوث حربين عالميتين كان لها فيهما شأن لا ينكر .

فهذه مراكش ـ بلد الاسود الروابض ـ لا تزال تتجرع
كأس الحماية المريرة الذى سقتها اياه فرنسا واسبانيا . وقد عملت
دول الغرب ـ وعلى الاخص انكلترة وامريكا ـ على اعادة نفوذ

... لتنا ان الله قد اشفى صدورنا واقر عيوننا ،

... المنحلة فى مطلع الحرب العالمية الاخيرة ...

... قد اعتبرتها فرنسا - فرنسا بلد الحرية والعدالة

... يزعمون - جزءاً من وطنها رغم انف الجزائريين ، وافسدت على
كثير من اهليها دينهم ، واخلاقهم ، ولغتهم ، وهى جادة فى
سياستها الغاشمة يساعدها فى ذلك اليهود ، ويحفزها مقت
الغرب المسيحى للشرق المسلم ...

وتونس الخضراء ، هل جاءكم نبأ المؤامرات الدنيئة والاعمال
الوحشية التى اودت بحياة عاهلها « بايها » الشرعى المجاهد ،
- وقد كان معتقلا فى جنوب فرنسا - وهل علمتم انباء المئات
والالوف الذين قتلوا أو صلبوا أو سجنوا أو شردوا من ذلك القطر
العربى الذى هو من أهم معاقل العروبة فى افريقية ...

وطرابلس الغرب - بلد الابطال المغاوير - هلا شاهدتم كيف
تعمل المصالح الاستعمارية الخبيثة على ان تحل ايطالية الجمهورية
الديمقراطية ، محل ايطاليا الملكية الفاشستية ليعيد الطليان سيرتهم
الاولى فى سوم اهلها سوء العذاب بتذبيح ابنائها وتدمير مساكنها ،
واغتصاب اخصب أراضيها والقاء ابطالها من الطائرات كما فعلوا
بالبطل الشهيد عمر المختار طيب الله ثراه ...

ومصر العزيزة ، أرض الكنانة ألم تعمد بريطانيا بخبثها
ودسها ، على تجزئة واديها ، وتهديدها فى نيلها وهو سر حياتها ،

وتضييق الخناق عليها ، والعبث بقناتها والماطلة فى سحب جيوش الاحتلال البريطانى البغيض ، ثم الكيد الاخير للوقيعة بالجيش المصرى المناضل فى الارض المقدسة .

وفلسطين وما ادراك ما فلسطين ، فلسطين الدامية الشهيدة ، اولى القبلتين ، والارض التى بارك الله من حولها ، وشاد العرب فيها قبتها[1] ـ وهى أخلد أثر عربى وسند عروبة فلسطين على حد ما قال بعض الغربيين ـ ماذا عسى ان أقول عنها ولم تعد فى اللغة كلمات تعبر تمام التعبير عما تقاسيه ، ويقاسيه العرب جميعا بسببها ، من مصائب ونكبات وآلام ...

فقد تجمعت قوى الشر كلها عليها ، وتواطأت روسيا الشيوعية ، وامريكا الرأسمالية ، وبريطانيا الاستعمارية ، وفرنسا الاباحية ، وجيكوسلوفاكيا الرغالية وغيرها وغيرها على تحطيمها ، وتشريد أهلها وذويها ـ اجمعوا على ذلك ولم يجمعوا قط على غير ذلك ـ .

وها هم اولاء مئات الالوف من ابنائها ورجالها ونسائها قد أصبحوا مشردين يفترشون الثرى ، ويلتحفون السماء الزرقاء ، ويطعمون ـ ان طعموا شيئا ـ أخشن الطعام ، وفيهم الشيخ الفانى ، والطفل الرضيع ، والمرأة المسنة ، والحبلى المثقلة . وليس منهم الا من فقد عزيزاً ، أو غيب شبلا ، أو ثكل ابنا ، أو شيع قريبا ...

---

(١) اشارة الى قبة الصخرة .

تركوا ديارهم ، وأوطانهم ، وأموالهم ، واعزاءهم ، وذكريات أجيال وقرون من تراث اجدادهم ، لينجوا بانفسهم من شر الذئاب الضارية ، وعصبة الغلاظ القساة الطغاة الذين لا يرعون الاً ولا ذمة ، ولا يرحمون شيخاً لكبره ، ولا طفلا لصغره ، ولا تأخذهم شفقة بامرأة أو مريض فكثيرا ما بقروا بطون الحوامل وتعدوا على عفاف العذارى ، وعملوا من المنكرات ما يندى له جبين الانسانية . وأكثر من هذا فلم يعد خطر الصيهونية قاصراً على فلسطين وحدها ، انه خطر يهدد الامة العربية بكاملها ، ومن لم يؤمن بذلك فهو اما جاهل لا يعرف عن مطامح الصهيونية العالمية شيئا ، أو خائن متآمر على الامة العربية والاسلامية يعمل لمصالح الصهيونية والاستعمار ...

أفليس من حق العرب خاصة والمسلمين عامة - وهذا حالهم - ان يستقبلوا هذا العام الجديد بقلوب حزينة ، ونفوس هالعة ، ومشاعر مضطربة ، لما لقوا فى عامهم المنصرم من سوء ؟ ، وأنى لاخشى ان لا يكون فى عامهم الجديد ما يبشر بكبير أمل أو عظيم رجاء[1] ...

على ان من أهم أسباب ما حل بنا من نكد ، وما أصابنا من بلاء ، سببان ، اولهما ما أصاب نفوسنا من زيغ عن الطريق السوى ، فقد تركنا كتاب الله وراءنا ظهريا ، واهملنا سنة نبينا

---

(١) لقد تغيرت الاحوال فى كثير من الاقطار العربية وكان لقيام الجمهورية العربية المتحدة ثم لجمهورية العراق شأن مهم فى تاريخ الشرق الاوسط وتحسن احواله .

وتعاليمه العالية ، وقد شق لنا طريق المجد فتنكبنا عن ذلك الطريق :

وعلمنا بناء المجد حتى   اخذنا امرة الدنيا اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى   ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

رضينا بهوان الحياة واقمنا على الذل ، وكان مبدؤنا قديما اطلب الموت توهب لك الحياة ، شغلتنا أموالنا ، واهلونا ، ومصالحنا عن شؤون أوطاننا ودينا وقومنا ...

« قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وثانيهما : وجود طبقة صغيرة حاكمة فى كثير من البلاد العربية والاسلامية ، ممن لا يؤمنون بعقيدة ، ولا يتقيدون بمبدأ ، همهم الاكبر اشباع رغباتهم ، وارضاء شهواتهم ، مهمتهم الاولى ان يثروا وان افتقر الشعب ، وان يبشموا وان جاعت الالوف . لا يشاركون شعوبهم فى احساساتهم ، ومشاعرهم ، هم محسوبون على تلك الشعوب ، وليسوا فى الواقع منها . انهم فى الغالب الاعم ، آلة بيد الاجنبى الماكر ، يسيرهم من وراء ستار ، فتراهم ينطقون بلسانه ، ويفكرون بعقله ، ويتعصبون له أكثر مما يتعصبون لانفسهم . ان امثال هؤلاء لاخطر على الامم والشعوب من العدو السافر ، والمستعمر الغاصب ، انهم هم الفيلة الاهلية

التى تصطاد الفيلة البرية ـ كما شبههم زعيم الهند الراحل محمد علي ـ .

ومن سياسة اولئك النفر ، تخدير شعوبهم ، وتركهم فى الظلام ، وبلبلة أفكارهم ، وتفريق صفوفهم بأثارة النعرات الدينية ، والمذهبية ، والعنصرية بينهم ، ثم الكفر بعقائدهم ومثلهم ، والايمان بالغرب وحده لا يشركون به شيئاً ...

هذه هى حال العرب والمسلمين ، وليس من الطبيعى ان تتغير ، ما لم يغيروا ما بانفسهم ، فيطهروها من الادناس والادران التى علقت بها ، ويقوموا المعوج من أخلاقهم ، ولا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها .

وعليهم أيضا ان يعملوا على تطهير أوطانهم من الداء الفتاك الكامن بين ظهرانيهم ، فلا نصر يرتجى لامة تحارب عدوها فى الخارج وعدوها اللدود فى صفوفها ، متوغل فى جميع مرافق حياتها ، مسيطر على سياستها .

فان لم يفعلوا ذلك ـ وليس لهم الا ان يفعلوا ـ فليأذنوا بالفناء المحتوم ، أو ذل الابد ...

وليخش العرب والمسلمون يوماً يسجل التأريخ فيه ان قد عاشت أمة متخاذلة متقاعسة ، فقضى عليها الزمن ، وهلكت وبادت ...

سيسأل قوم ما الحجيج ومكة كما قال قوم ماجديس وماطسم

(٧)

خواطر تثيرها ذكرى المولد[1]

نحتفل ، فى هذا المكان العامر ، وبين هذه الانوار المتلألئة ، فى هذه الساعة المباركة ، من مساء هذا اليوم العظيم ، كما يحتفل المسلمون جميعا فى مشارق الارض ومغاربها بذكرى ولادة سيدنا ومنقذنا الاعظم الرسول المصطفى الامين . وقد جرت العادة منذ سنوات عدة ، لا بل منذ قرون مديدة ، بأن يبجل المسلمون هذه الذكرى بما هى حرية به من تبجيل وتكريم ، وأى يوم من أيام هذا الزمن المتغير المتجدد أجدرُ بالذكرى ، واحرى بالتبجيل من يومٍ ولد فيه ذلك النبى العربى القرشى الذى فتح الله بميلاده للانسانية عهداً لم تعرف له من قبله ، ولا من بعده ، مثيلاً ؛ عهداً ذهبياً سعيداً ملأ الارض عدلا وخيرا ، وكانت قد مُلئت ظلماً وشروراً ... وأنه لحرى بالناس جميعا ـ على اختلاف أديانهم ومللهم ، ولو انهم قدروا ميلاده وحياته حق قدرهما ، ولو أنهم ادركوا ما فى حياته من نعم ـ ان يقدسوا هذه الذكرى ؛ ذكرى ولادة من ارسله الله رحمة للعالمين « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

---

(١) الخطاب الذى القى فى جمعية الشبان المسلمين واذيع من محطة الاذاعة العراقية بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف ليلة ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٥٩ هـ أى سنة ١٩٤٠ م .

لقد كانت ذكرى ولادة المصطفى ، ولم تزل ـ سبباً يُوحى الى الشعراء أبدع القصيد ، مما يهز أوتار القلوب هزاً ، والى الخطباء أبلغ المقال ، ـ مما يرفع عقول الناس وأرواحهم الى اسمى المراتب ـ والى الكتاب أحسن السير . سيرة كلها فضل ونبل وُمثل صالحة .

وقد حفزت ذكرى ولادته وحياته كثيراً من الفلاسفة والمفكرين الى دراسة حياته دراسة مستفيضة فى مختلف نواحيها ، ولكن حياته وسيرته صلوات الله عليه وسلامه كالبحر الخضم الزاخر لا يدرك غوره ولا يعرف قراره ، وكلما ازداد المرء دراسة لحياته ازداد يقيناً بعجزه عن ادراك كل ما اودع الله تعالى فيه من أسرار العظمة ، ومراتب الكمال .. وكلما ازداد تطلعا الى أخلاقه ازداد اعجابا بشمائله وسجاياه . ومهما انشد الشعراء ، ومهما القى الخطباء ، ومهما سجل الكتاب ، فأنهم لاشك عاجزون عن ادراك كل ما فى حياته الكريمة من معان ، وما فى سيرته المباركة ، من عبر ، وما فى خلقه العالى ـ وقد ادبه ربه فأحسن تأديبه ـ من حسن وكمال ، وما فى دعوته ودينه من آيات بينات .

ولست اريد ان اضيف الى ما قال الشعراء والخطباء ـ ولست بشاعر ولا خطيب ـ شيئا . ولكنى وقد شرفتنى جمعية الشبان المسلمين اذ طلبت الي ان أقول شيئا فى هذه المناسبة الكريمة ، أريد أن أبث بعض خواطر كثيرا ما كانت تدور بخلدى ، وتجول بفكرى ، حول الاسلام والمسلمين ، خاصة حينما كنت أطلب العلم

فى بعض معاهد الغرب ، وحين كنت اتعرف الى الحياة الاوربية التى عشت بين اهليها زمنا ليس بالقصير ... ـ والحياة الاوربية هى الاخرى علمٌ جدير بالمعرفة ـ ولقد كنت تجاه تلك الحياة فى صراع نفسى دائم ؛ كنت أطمئن اليها ساعة وانكرها ساعة أخرى . وكنت أبصر ما فيها من قوة ومن ضعف ، وكنت دائم الموازنة بينها وبين حياتنا فى محيطنا العربى الاسلامى .

ولست الآن فى مجال المقارنة بين حياة الغرب وحياة الشرق ولا المفاضلة بينهما ، فلكل منهما طابعه وخصائصه ولكل محاسنه ومساوؤه ، وليس من الحق فى شيء ان نعد الواحدة منهما خيرا محضا ، والاخرى شرا محضا .

ولكن من أول ما ابصرته بصورة جلية ظاهرة ان الغرب قد أخذ بكثير من مبادىء الاسلام واسسه ، وقد ادخل تلك المبادىء والاسس فى حياته ، ونظم معاشه ، وقواعد خلقه ، وانه قد استطاع ان يتمثلها على أنها جزءٌ من فلسفة الحياة ، ثم انه بعد ذلك ـ اما جهلا منه أو تجاهلا ـ لا يعرف لتلك النظم مصدرا غير انها مستمدة من الحياة نفسها ، او انها ثمار المدنية الغربية التى يتمتع هو بها ، ويظن انه وحده قد انشأها . وفى الحق ان أكثر تلك الاسس قد انتقلت من الشرق الى الغرب ، يوم كان الشرق قويا متمدنا والغرب ضعيفا متأخرا . وانه لمن المؤسف حقا ان يضيع الشرق تلك الاسس الرشيدة فيبقى فى

جهالته الجهلاء ، والغي المودى به الى أسفل دركات الانحطاط ..

والظاهرة الثانية التى أبصرتها هى انى وجدت الشخص الغربى المتوسط الثقافة لا يعرف ، أو لا يكاد يعرف ، عن الاسلام شيئاً صحيحا . ولكنه مع ذلك يعلم بعض الشيء عن مسلمى اليوم ، وقد وقع فى هذا الخطأ الفاضح حين زعم ـ كما زعم بعض المسلمين انفسهم ـ ان الاسلام والمسلمين اسمان مترادفان لمسمى واحد ، وهذا الخطأ شبيه بما يقع فيه كثير من الناس اليوم حين يزعمون ان « الديمقراطية » كمبدأ سياسى أو كنظام للحكم هى والدول الديمقراطية ، ـ أو ما تسمى ديمقراطية ـ شيء واحد ، وليس هما بالشيء الواحد فى واقع الحال .

ليس الاسلام والمسلمون بالشيء الواحد ، بل لعلنا لا نغالى اذا قلنا انهما شيئان متناقضان . هذه حقيقة يجب ان نعلمها جيدا ؛ انها من أول ما يجب ان نعلمه لان ذلك أول امارات الاصلاح .

الاسلام وحدة ، وحدة غير قابلة للتجزأة ، والمسلمون أشتات قد فرقتهم الاهواء شيعاً وأحزاباً (كل حزب بما لديهم فرحون) الاسلام قوة ، وما اعظمها من قوة ، والمسلمون ضعفاء مستضعفون قد غلبوا على امرهم وذلوا فى عقر ديارهم ، فقدوا سلطانهم بعد ان فرطوا فى جنب الله ، وخضعوا ـ فى اكثريتهم ـ لحكم

الاجنبى الغاصب ، ورضوا بالهوان فخارت عزائمهم ، وسهل الهوان عليهم .

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

كم بين الـ (٤٠٠) مليون مسلم ممن يقطنون المعمورة من هم مستقلون فى أوطانهم .؟ وكم بين هؤلاء الذين يسمون انفسهم مستقلين منهم مستقلون فى الحقيقة والواقع ؟ هذه حقائق مرة ولكن من الحق علينا ان نعترف بها . يعيش المسلمون بهذا الوضع المزرى بينما ليس فى الاديان السماوية ، ولا غير السماوية ، ما يجارى الاسلام فى دعوته للاستقلال والتحرر ، لمقاومة العدو وللاستعداد للطوارىء . « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

الاسلام دين التوحيد ؛ التوحيد بأجلى معانيه واسماها ، واكثر المسلمين اليوم ، برغم الاسلام الذى يزعمون انهم متمسكون به (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) مشركون وثنيون ، يقدسون الاحياء والاموات « وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » . ولكن كثيرا من المسلمين يعبدون الله باللحن والعويل .

نعبد الله والعبادة لحن ... عند بعض وعند بعض عويل

الاسلام ثورة فكرية عارمة ، ودعوة للتجديد عنيفة ، وتحطيم

للخرافات والاوهام . والمجتمع الاسلامى اليوم فى أكثر نواحيه مقلد جامد يعشق التقاليد البالية ، ويعيش فى محيط من البدع والضلالات التى يعدها من الاسلام وليست هى من الاسلام فى شيء ..

الاسلام شريعة سمحة تؤمن بقانون التطور ، ولا تنكر تغير الاحكام بتبدل الازمان ، والمسلمون قد سدوا باب الاجتهاد فجمدت الاحكام ولم تعد تساير فى تفرعاتها مقتضيات المعاملات المدنية . فزهد أكثر الناس فى الاحكام الشرعية ، وظن بعض الناس أن لا خير من التقيد بها ، وان من صالحنا ان نتوجه شطر الغرب لننهل من معينه ، ونأخذ بالقوانين الاوربية كالقانون المدنى السويسرى ، أو القانون المدنى الفرنسى أو غيرهما .

ليت شعرى أيدرك هذا النفر من الناس ماهية القوانين حق الادراك ! أوليست القوانين أقوى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ؟ أليست القوانين مرايا تعكس حالة البلاد العقلية والبيئة الخلقية ؟ وهل البيآت الاجتماعية والطبائع البشرية سواسية فى كل مكان ؟ وهل الشرائع الغربية التى يريدوننا ان نقلدها ونستبدل بها شريعتنا شريعة واحدة ؟ أن فى الغرب شرائع عديدة ، ويكاد يكون لكل أمة نظامها القضائى القائم بذاته وان تتشابه فى بعض النواحى مع النظم الاخرى . فالشريعة الانكليزية تختلف تمام الاختلاف عن الشريعة الفرنسية ، ويكاد يكون ما بينهما من خلاف أعظم من

الخلاف بين الشريعة الاسلامية والشريعة اللاتينية - فى بعض القضايا الاساسية - ومع ذلك لم نسمع أن احدا من قادة الرأى من الانكليز يدعو الى استبدال القانون الفرنسى بالقانون الانكليزى ولا عكس ذلك . ثم ان القانون المدنى الالمانى ، وهو من احدث القوانين المدنية وأدقها تركيبا ، مستند على كثير من نظريات القرن التاسع عشر وفلسفته الواقعية ، يختلف أشد الاختلاف عن القانون المدنى الفرنسى المتأثر بفلسفة القرن الثامن عشر والمستند فى كثير من مبادئه الى فلسفة القانون الطبيعى ومبدأ الحرية المطلقة فى العقود .

وليس هذا التنافر وهذا التباعد بين « الاسلام والمسلمين » بقاصر على الصفات الفردية ، أو الحياة الخلقية ، وانما شمل حياتهم السياسية ونظم الحكم عندهم . فرضى المسلمون بأشكال من الحكم فرضت عليهم فى بعض الحالات فرضا ، وأخذوا بها عن رضاً ، ولكنها عن تقليد منهم ، فى حالات أخرى ؛ وعلى ذلك فالتناقض ظاهر بين الاسلام وحال المسلمين .

ليس فى الاسلام « مسيح وقيصر » ، ولا « كنيسة وحكومة » ، ولا « دين ودولة » ، ولا « سلطة دينية وسلطة زمنية » ؛ ولكن المسلمين فى أكثر أقطارهم قد أقروا هذا التقسيم المصطنع المجلوب ، ورضوا به ، وقسموا حياتهم الى شطرين ؛ الى دين - بمعناه الغربى الضيق - ، ودنيا ، بينما الاسلام فى فلسفته

وأسسه يمزج بين هذين كل المزج . وهنا سر عظمته ، ودعاء المسلم الصالح « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وان الله ليعبد خير عبادة حين يكسب المرء قوته وقوت عياله ، وان المرء ليثاب اذا اتقن عمله وصنعته ، وأن طلب الرزق والكفاح فى سبيل الحياة قد سماهما الرسول الكريم بالجهاد الاكبر ، بينما سمى الجهاد فى سبيل الدعوة للدين الحنيف بالجهاد الاصغر . وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، ومهنة القضاء ليست الا عملا من أعمال هذه الحياة .

وقد نهى رسول الله عليه السلام عن الانزواء والزهد والابتعاد عن قواعد الفطرة الطبيعية فقال « لا رهبانية فى الاسلام » . بل أكثر من ذلك فقد عرف الدين بقوله « الدين المعاملة ؟ » .

وفى الحياة العامة ألم يكن أمير المؤمنين ، أمام المصلين ، وهو قائد المجاهدين ؟ فيه اجتمعت السلطتان ، وعليه فرض واجب اسعادهم فى حياتهم ومعادهم ؟ « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » . فتقسيم الحياة بين دين ودولة وضع غير اسلامي تقره المسيحية ـ لان مفهوم الدين فى المسيحية مفهوم ضيق جدا ـ ولكنه والاسلام على طرفى نقيض . وقد اعقب هذا التفريق فى المجتمع الاسلامى نتائج كبيرة وأصبحت حكوماته ودوله تقوم بأعمال لا يمكن للمسلمين ان يُقروها لو ان الفكرة الاسلامية الاصلية قد حوفظ عليها . أمن الجائز لدولة اسلامية ـ بالمعنى

الاسلامى الصحيح - ان تقر دور البغاء وتعترف بها رسميا وتأبى بلاد كانكلترة ان تعترف بوجودها ؟ أمن الجائز لدولة أسلامية أن تجعل تداول الخمور هينا سهلا وتحصل من ذلك على قسم من وارداتها وقد تتناول الخمرة فى حفلات رسمية ينفق فيها المال من خزينة الدولة بينما تسعى امريكا للقضاء على شرب الخمور القضاء النهائى ؟[1]

أمن الجائز لدولة اسلامية ان تترك الناس يموتون جوعا ، وتترك آخرين يستمرون فى كنز الذهب والفضة ، ولا تطالبهم بدفع ما عليهم من زكاة ، وما للفقراء عليهم من حقوق ، بينما تضع كل الممالك الاوربية ضرائب شديدة تسمى « ضرائب الفقراء » توزع على المحتاجين بدقة وبعدل . ولكن هذه الاعمال وكثير من امثالها تحدث فى كثير من الممالك التى تسمى نفسها ممالك اسلامية ...

لست أدرى ماذا يقصد بهذا التعبير ، ولكن الذى أفهمه ان المملكة كى تستحق هذا الاسم الكبير « مملكة اسلامية » عليها ان تأخذ بكل اسس الاسلام ومبادئه . اما ان تكتفى ببعض المظاهر ، كأن تعطل أيام الجمع بدلا من أيام الاحد ، وان تتخذ اليوم الفلانى دون اليوم الفلانى عطلة رسمية ، فلا يكفى ذلك

---

(١) قضت حكومة الثورة على هذه العادة السيئة فلم تعد الخمور تقدم فى الدعوات الرسمية التى تنفق عليها الحكومة من الخزينة العامة . وهذا عمل حسن .

بحال لتمييزها عن سواها . وأود ان أكون واضحا مفهوما .

لست أدعو فيما أقول الى تكوين وحدة سياسية اسلامية لان ذلك كما هو جلي لكل ذى بصيرة صعب المنال فى الظروف الحاضرة . ولست أدعو الى ارجاع الخلافة الاسلامية وذلك لان هذا النظام ، - بالرغم مما له من قدسية فى نفوس بعض المسلمين - لا قيمة فعلية تُرتجى منه ما لم تستقل الممالك الاسلامية جميعها استقلالا تاما ناجزا والا أصبحت وظيفة الخليفة وظيفة تقليدية كثيرة الشبه بمركز البابويه فى العالم المسيحى الكاثوليكى . وان المخلصين من المسلمين ليربئون ان يصبح هذا اللقب العظيم الذى حمله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز وظيفة شكلية غير اسلامية فى أساسها ... هذا من جهة ومن جهة أخرى فانّ الخلافة بالرغم من عراقتها كنظام اسلامى ليست من اسس الدين التى لا يمكن تغييرها واستبدالها بنظام آخر تجتمع عليه الامة ويكون فيه صلاحها ، وليس ثمة ضابط فى هذا الصدد أقوى وأصلح من قوله تعالى « وامرهم شورى بينهم » ، ومن قوله عليه السلام « لا تجتمع أُمتى على ضلال » .

هاتان القاعدتان يجب ان تكونا المنظم لاختيار نوع الحكومة التى تصلح للمسلمين .

وعندى ان صلاح العالم الاسلامى متوقف على صلاح الامة العربية لانها مادة الاسلام ودعامته ؛ نزل كتاب الله بلغتها ، وهى

اقدر الناس على فهم ما فى كتاب الله من أسرار . ثم ان الله تعالى قد اصطفاها واصطفى محمداً منها لتبليغ رسالته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، ثم ان موقع بلادها بين الشرق والغرب ، وامتدادها فى آسيا وافريقية يجعلها من الناحية المادية أقدر على القيام بعبء اصلاح العالم الاسلامى . ورحم الله السيد جمال الدين الافغانى حين قال ، لا يصلح هذا الشرق الا بصلاح العرب » .

ولكن حال العرب اليوم ليست مما يشير الى قرب حدوث هذا الصلاح المنتظر . لابد لمن يريد ان يصلح الناس ان يكون صالحا فى ذات نفسه . وعندى انه لابد لصلاح العرب من حركة « تجديدية رجوعية » ان صح هذا القول ؛ لابد من تجديد يشمل كل نواحى الحياة ، تجديد فى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى الاقتصاد ، وفى الثقافة ، وفى نظم العيش . تجديد قوى عنيف يهز الناس هزاً ، ويجعلهم مدركين ما عليهم من تبعات ، ويعرفهم قدر نفوسهم ، ويعلمهم ما فى « العروبة والاسلام » من معان ، ويريهم كيف ان الآلاف ، بل الملايين من المسلمين يرتقبون النور الساطع يضىء بينهم من جديد فيبدد الظلام الدامس الذى شمل الانسانية . يحتاج العرب اليوم ، قبل كل شىء ، الى الثقة بانفسهم وبعث المثل الاعلى الذى ينشدونه .

يعيش أكثر العرب اليوم ووجهتهم فى كل شىء الغرب ، فى نظم حكمهم ، فى أساليب الحياة ، فى اسس الثقافة ، فى طرائق

التفكير ومعايير الذوق . وان الكثيرين من العرب ليعتقدون مخلصين اننا كلما قربنا من الغرب قربنا من الغاية ، ومن الخير ومن الكمال . وفى هذا ضلال أى ضلال ...

لابد لنا للنجاح فى هذه الحياة ان تكون وجهتنا ومثلنا مستمدة من تأريخنا ، من سير أبطالنا ، من حياة عظمائنا ، وفوق ذلك ، وقبل ذلك ، من المثل الاعلى الذى وضعه لنا سيدنا ومولانا محمد النبى العربى الذى نحي فى هذه الليلة ذكرى مولده الشريف .. لابد لنا من الرجوع الى تراثنا - وهنا تظهر الناحية الرجوعية فيما ادعو اليه من تجديد - لابد لنا من الرجوع الى ما ترك فينا محمد وأوصانا بالاخذ به فى حجة الوداع : « فانى تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه » . عند ذلك ، وعند ذلك فحسب ، سيكون الاسلام والمسلمون شيئاً واحدا .

ولعل هذا العالم المضطرب ، المستعر فى حرب ضروس سيرجع العرب الى بعض رشدهم ، ويمكنهم من ادراك هذا الامر الجليل ، والعمل به ، بكل ما اوتوا من قوة وسلطان .

لابد ان تكون لحضارتنا كل مقوماتها الاصلية المبدعة ؛ وفلسفتها الذاتية المنبثقة من ذات انفسنا كيما نصبح شيئاً فى هذا الكون .

ولست - مع ذلك - انكر استخدام الوسائط الحديثة ،

والانتفاع بما وصلت اليه الحضارة العصرية ، ما دمنا نستخدم تلك كوسائط ليس غير .

لابد لنا من استخدام كل وسيلة تزيد فى رفاه الافراد وتحسين حالتهم .

ولست أزعم ان ما يرجى من اصلاح سيتم فى يوم أوفى سنة أو فى سنين قلائل ؛ لابد من زمن قد يطول وقد يقصر ، ولكنى واثق انه متى اعتنق الناس هذه الفكرة ، وبدأوا يطبقونها بما يعتنقون فستكون كل مدة قصيرة ، وكل صعب يسيرا ..

وسيكون من العسير على كثير من الناس ان يؤمنوا بهذه الفكرة ، ما لم يحطموا من مخيلاتهم كثيراً مما تعودوا ان يعدوه طبيعيا وصحيحا ، وليس هو بالصحيح ولا بالطبيعى .

لابد لنا من ترك بعض المقاييس الغربية التى أقل ما يقال فيها انها وضعت لبيئات غير بيئتنا ، ولعقليات غير عقليتنا . وليس فى ذلك ما يعنى اننا اضعف منهم عقولا أو أقل ادراكا ، بل اننا نختلف عنهم وكفى . فلئن كان الشاعر الانكليزى رديارد كبلنك حين قال « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبد الآبدين » أراد ان يحط من قدر الشرقيين فان الحقيقة هى ما يقول لا ما يعنى . أجل ؛ الشرق شرق والغرب غرب . يجب ان نؤمن بهذا وان نعتز بهذا . وعلينا ان نحيي فلسفة الشرق ، ومثل الشرق ، وروحانية الشرق ، ولنترك اوربا تصطدم بماديتها فيحطم بعضها

بعضا الى ان تدرك ما فى الشرق من روحانية ، وما فيه من سمو فتؤمن به صاغرة . وهل جاء الشرق بشيء أعظم من الاديان ؟ وهل بين الأديان ما هو أعظم من الديانة السمحة التى فطر الله الناس عليها جميعا .. ؟؟

وقبل ان اختتم كلمتى هذه أود ان نتجه جميعنا بقلوب خاشعة شطر البلد المقدس ، الى ما وراء الاردن ، الى اخوان لنا فى الدين ، واللغة ، والاصل ، جاهدوا جهاد أصحاب الرسول الاولين ـ وها قد مر على جهادهم الاخير أربع سنوات كاملات ـ وقد صدق فيهم قوله تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

اللهم بجاه ذكرى ولادة حبيبك المصطفى محمد ان تفرج الكرب عنهم ، وان تنصرهم على عدوك وعدوهم ، وان تحقق أمانيهم .

اللهم وأن تهب العربَ والمسلمينَ جميعاً جرأةً وبأساً فى الجهاد فى سبيل دينك ، وفى سبيل الحق الذى هو من أقدس اسمائك .

(٨)

في ذكرى المشرع الاعظم[١]

لئن احتفل المسلمون بذكرى نبيهم العظيم المرسل ، والعرب بذكرى مولد منقدهم الذى بنى لهم مجداً لا يدانيه مجد ، حرى بمعهدنا هذا « كلية الحقوق » وهو المؤسسة الوحيدة فى قطرنا ، التى تعنى بالدراسة القانونية ، ان نعظم ذكرى « المشرع الاعظم » الذى وضع من اصول الاحكام ، وقواعد التشريع ، ما يصلح لكل زمان ولكل مكان ...

وحرى بنا نحن الذين اخترنا لانفسنا الدراسة القانونية ان نعنى بصورة خاصة ، اشد العناية ، بهذه الذكرى ، ذكرى المشرع الاكبر الذى جاءنا بشريعة غراء سمحاء خالدة .

على ان هذه الذكرى ستكون عابرة وغير مجدية ، بل قد تكون ضارة بعض الشىء فى اعطاء مفهومات خاطئة ، حين نقتصر فيها على القول المعاد ، والقصيد المكرور ، والمظاهر البارقة وما الى ذلك مما الفناه فى الاحتفالات والاجتماعات التى تقيمها بعض الهيئات والجمعيات فى مثل هذه المناسبة منذ سنوات عديدة ...

ان هذا النوع من التخليد غير مجد ، وهو غير مجد فى هذا

---

(١) خلاصة الكلمة التى ارتجلت فى الحفل الذى اقامه فريق من طلاب كلية الحقوق عام ١٩٥٠ بمناسبة ذكرى المولد النبوى .

الزمن المضطرب ، وهـذا الوقت العصيب الذى لم يعـد الناس يصغون فيه الى لغة الـكلام ، بل ان لغة الحديد والنار ؛ الى هذه القوى الفتاكة الرائعة التى ابتدعها عقل البشر الجبار ليحطم بها ما اشاده ، ورفع سمكه ، من اسس الحضارة ومعالم العمران طوال عصور عديدة ...

ونحن بحمد الله لم نزل فى بعـد عن هـذا النار المتقدة ، اذ نرجو الله مخلصين ان يبقينا فى نجوة من اوارها ، حريون ان نعلم ان ليست الحرب الا حالة استثنائية فى حياة البشر مهمـا طالت مدتها ، وليس من الحـكمة فى شىء ان تشغلنا اخبار الحرب عن العمل الواجب ، والاصلاح الذى نفتقر اليه فى كل ناحية من نواحى حياتنا ...

وعندى ان هذه الحرب بالذات يجب ان تكون دافعا لنا فى التفكير العميق ومضاعفة الجهد المجدى فى شتى نواحى حياتنـا الاجتماعية والثقافية والصحية والاقتصادية ، علاوة على النواحى الحربية والسياسية .

علينـا ان نعتبر بهـذه الحرب ، ونعلم علم اليقين ان التنظيم والتخطيط فى حد ذاتهما عنصران هامان ، ووسيلتان لابد منهما لمن يريد الانتصار فى الحرب ، أو فى أى كفاح ، وكل كفاح حرب من الحروب على وجه من الوجوه .

علينا ان ندرك ان التنظيم الاقتصادى أساس للسلم وللحرب ،

وان مشكلاتنا الاقتصادية عديدة ، وانها ستزداد تعقيدا يوما بعد يوم ، ولذلك فمن واجبنا ان نعد العدة لنواجه المستقبل لئلا تأخذنا الاحداث على حين غرة . علينا ان نقتبس من الدول المتحاربة دروسا عديدة ، وحرى بنا ان نعلم ان الحرب العالمية الاولى مثلا كانت حافزا قويا لكثير من الدول المتحاربة لاجراء اصلاحات اجتماعية واقتصادية عديدة أثناء الحرب ذاتها ، بمعنى ان تلك الدول لم تتخذ من الحرب ذريعة للتباطؤ فى اجراء الاصلاحات الاساسية - مع تقدير ظروف الحرب - التى شعرت بالحاجة اليها . وعلى ذلك فنحن ، ولم تزل الحرب بعيدة عنا ، احرياء ان ندرك هذه الحقيقة ، وقمنا ان نجد لتدارك اوجه النقص العديدة فى حياتنا الاقتصادية .

ان نواحى النقص فى حياتنا الاجتماعية عديدة ومتشعبة ، وهى بحاجة الى الاصلاح الجدى الجذرى . وعلينا ان نتخذ من حياة رسولنا العظيم ، وذكرى ميلاده الشريف ، حافزا قويا يذكرنا بالحاجة الماسة الى هذا الاصلاح الذى طال انتظاره . وعبث ، أى عبث ، ان نتقاعس فى الدعوة الى هذا الاصلاح المنشود بحجة الحرب وظروفها ، وحرى بنا ان نتذكر قول الرسول الكريم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . فدعاة الفكر ورجال القانون خاصة مطالبون بحكم واجبهم ان يؤكدوا هذا الامر ،

ويتشددوا بهذا المطلب والا فانهم مقصرون بواجباتهم اشد التقصير .

وفي النواحي الثقافية لم تزل حاجتنا للاصلاح والتجديد الجذري عظيمة . اننا لا نجد لثقافتنا اليوم طابعها الاصيل ، ولا وجهتها الصريحة . وما يصح ان يقال عن العراق في هذا الصدد يصح ان يقال بالنسبة لاكثر البلاد العربية الاخرى . ولسنا الآن في معرض استقصاء الاسباب التي ادت الى هذا الموضوع ، ولا تحري العوامل التي اوجدته ، فلذلك مجال آخر ، ولكننا يجب ان نؤكد حقيقة واضحة هي ان ثقافتنا اليوم خليط من ثقافات عديدة أخرى ، هي مزيج من بقايا ثقافتنا الشرقية القديمة ، وثقافة الغرب الحديثة ومصادر الثقافة الحديثة بالنسبة لنا متنوعة ومتضاربة احيانا . ولسنا ندعو الى عدم الاقتباس من الثقافات الاجنبية ، انما نريد ان نصهر ما نقتبسه صهرا ، ونكيفه تكييفا خاصا يتلاءم مع طباعنا وحاجتنا ، وخصائص امتنا ، وعلى العموم نريد ثقافة لها طابعها الاصيل ، ومعالمها الواضحة ، ونريدها ثقافة تتجاوب مع حاجاتنا وتكشف عن طبائع امتنا .

ان نواحي التحدث عن الرسول الكريم لا حصر لها ، ونحن رجال القانون تعنينا حياته في أكثر من ناحية واحدة ، فقد كان صلوات الله عليه وسلامه قاضيا فاضلا ، وفقيها عظيما ، ومشرعا كبيرا . وكم يجدر بمعهدنا هذا ان يخصص فريقا من اساتذته وطلابه لدراسة هذه النواحي من نواحي حياته العديدة

خاصة للـكشف عن عبقرياته العظيمة . ولن يكون حاصل تلك الدراسة نفعا قاصرا على هذه الـكلية وللدراسة القانونية عامة ، بل سيكون تراثا انسانيا خالدا حرياً ان يرتوى من معينه كل الفقهاء والقضاة والمشرعين فى كل دنيانا هذه . ونكون بذلك قد احيينا هذه الذكرى الـكريمة على الوجه الذى هو خليق بها ، وخليق بكلية الحقوق ...

(٩)

طقوسنا الدينية[١]

I

تنشط بعض الجمعيات الاسلامية وبعض المعاهد والهيئات فى اقامة حفلات عامة فى شهر ربيع الاول من كل عام هجري وذلك بمناسبة مولد الرسول العظيم . ويرجع تاريخ هذه السنة الى أواسط العهد العباسى ، وهى ليست من محدثات عصرنا هذا ، وان تجلت فى السنوات الاخيرة بشىء من النشاط الملحوظ .

وعادة اقامة الحفلات فى ذكرى ولادة العظماء ، أو وفاتهم ، أو بعض ما يتصل بحياتهم ، عادة قديمة لدى شعوب الارض جميعا ، وهى مظهر من مظاهر التكريم والاجلال ، ووسيلة لاظهار ما يحسه الناس حيال تلك الشخصيات الفذة من اعجاب وتقدير .

فليس بدعا ، والحالة هذه ، ان تعنى الامم الاسلامية عامة ، والامة العربية خاصة ، بولادة سيدها ومنقذها لاسيما فى مثل هذا العصر الذى هى أحوج ما تكون فيه الى كل ما يثير همتها ، ويذكرها بأمجادها ومفاخرها ، ويستنهضنا للوثوب من جديد لتحيى حياة حرة كريمة .

---

(١) نشر القسم الاول فى مجلة عالم الغد الاسبوعية الصادرة فى بغداد بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ هـ الموافق لليوم السادس عشر من شهر مارت سنة ١٩٤٧ . أما القسم الثانى فقد اعد للنشر ولكنه لم ينشر من قبل .

ولقد حضرت هـذا العام عددا من تلك الحفـلات ، كمـا حضرت مثيلاتها فى السنوات الماضية ، وأطلعت على قسم كبير مما قيل فى امثال هـذه المناسبة من منظوم الـكلام ومنثوره ، وكنت ـ وانا استمع الى الخطباء والشعراء ، أو وأنا أقرأ ما كتبه الـكتّاب ـ أحس بخاطرات عديدة وآراء كثيرة رأيت من الخير أن أسجل فى هذه العجالة ما قد يكون مفيدا منها مما يجعل هذه الذكرى أروع وأجل وأجدى مما هى عليه الآن .

وخواطرى وآرائى هذه يتعلق قسم منها بالشكل والمظهر ، ويتصل القسم الآخر بالموضوع والجوهر ؛ أى انه يتعلق ببعض الآراء والافكار التى يعلنها الخطباء والشعراء والـكتاب فى خطبهم وقصـائدهم ومقالاتهم . فأما من ناحيـة الشكل فأول ما جلب انتباهى هو ضآلة نصيب الجهات الرسمية فى هذه الذكرى . ولولا ان هذا اليوم عطلة رسمية تعطل فيها دواوين الحـكومة ، ويتمتع موظفوا الدولة بأجازة تعفيهم من أعمالهم اليومية ، ولولا قيام مديرية الاوقاف العامة ـ وهى دائرة حكومية ملحقة ـ بتزيين بنايتها ، وانارة بعض مسـاجدها ومؤسساتها ، وقيامهـا ببعض النشاط المحدود ، ولولا الاعلام العراقية ـ واكثرها قديم ممزق ـ تزين مداخل بعض دواوين الحـكومة ، لمـا أحس الناس بأثر رسـمى لهذه الذكرى . والحـكومة العراقيـة تعنى فى العـادة بمناسبات كثيرة أخرى وتحتفل بها ، ولو قورنت تلك المناسبات

بولادة الرسول لما كانت شيئا يذكر ، فهل للحكومة أن تتنبه الى هذا النقص المشين وتتلافاه فى السنوات القادمة ؟؟

ولئن كانت الحكومة مقصرة فى حق هذه الذكرى السامية فأن أغلب الشعب مقصر فى حقها أيضا . ولولا نشاط بعض الجمعيات والمعاهد لما عرف الناس شيئا ذا خطر فى ذكرى هذا اليوم الميمون ، ولمر كما تمر الايام العادية الاخرى من كل عام .

وعندى ان الواجب يقضى على كل فرد أن يحس فى أعماق نفسه ، ويشعر بكل جوارحه ، ان هذا اليوم ليس كسواه من سائر الايام ، وان يعمل فى ذاته ، وفى بيته ، وفى عائلته ومحيطه ، على أن يكون يوما بارز الاثر فى حياته وحياة الجماعة التى يعيش فيها .

وحريٌ بنا أن نحتفل بهذا اليوم كما يحتفل الغربيون ـ على الاقل ـ بولادة السيد المسيح عليه السلام ، وان نهتم به قدر اهتمامهم به ، وأن يكون له فى حياتنا ما له من أثر فى حياتهم . وأنا لا أقصد ، بطبيعة الحال ، الى تقليدهم فى اقامة الحفلات الصاخبة ، والسهرات الماجنة الخليعة ـ وقد قلدناهم فى هذا اسوأ تقليد ـ وانما أقصد أن يكون لهذا اليوم صفة شعبية عميقة الاثر فى حياة الافراد والجماعات ، وان نشرب قلوب أطفالنا حب الرسول ، واجلال مولده ، ونلقنهم ـ منذ نعومة أظفارهم ـ كل ما يحبب اليهم ذكراه ، حسبما تستسيغه عقولهم . كما تفعل أمم الغرب فى تعليم ابنائها مبادىء المسيحية ، وتعاليم المسيح ، وان

نسعى لان ننشىء أدباً رفيعاً خاصا بسيرته وميلاده غير ما ورثناه
من العصور المظلمة من سقيم الافكار ، وان نبدع حياة اجتماعية
تتناسب وهذه الذكرى الكريمة . ومن الملاحظ أيضا أن
الجمعيات الدينية وبعض المعاهد العلمية هى وحدها التى تعنى
بأقامة حفلات المولد . وعندى ان هذه الظاهرة بقية للرأى
الخاطىء الذى لا يزال يُخيم على عقول بعض رجال الدولة
والسياسة والاحزاب والمفكرين فى بلادنا ، وهو قصر كل ما
يتعلق بالاسلام ورسوله برجال الدين أو من هم على شاكلتهم ،
وهم ينسون أو يتناسون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاء بدين
ودولة ونظام اجتماعى شامل ، جاء بدين ودولة لا يستقل واحد
منهما عن صاحبه ، واختط منهجا للحياة يشمل كل نواحيها المادية
والادبية ؛ فمحمد لجميع الامة ، وعلى الامة بجميع أفرادها ،
وطبقاتها وثقافاتها ، ومذاهبها ، برجالها ونسائها ، بشيبها
وشبانها ، أن تحفل به وبذكراه .

وعندى ان المسيحيين من العرب هم كالمسلمين مكلفون
بتخليد هذه الذكرى ؛ على وجه من الوجوه . فلئن كان محمد
رسولا وزعيما بالنسبة للمسلمين فهو بطل وزعيم بالنسبة لغيرهم
من ابناء الامة العربية .

ومما يتعلق بالشكل أيضا ظهور حفلات المولد بمظهر
متشابه ، بل تكاد تكون كل واحدة من تلك الحفلات انموذجا

لما سواها ، حتى ليكاد الفرد يعرف المنهاج قبل الاعلان عنه . ويندر أن يرى المرء جديداً ؛ وقد صارت الحفلات كأنها لحن موسيقى متكرر فى أيام مختلفة . ولعل الأنكى من هذا كله أن تبلغ الجرأة ببعض الخطباء والشعراء أن يعيدوا فى حفل ما سبق ان القوه فى حفل آخر ، أقيم فى نفس العام أو فى عام مضى .

وكأن شخصية الرسول الفذة ، وعبقريته المتعددة النواحى ، قد استوفيت من كل جهاتها فلم يبق مجال لقول قائل ، وان ليس لنا ألا أن نقول معاداً من قولنا مكروراً ...

تلك هى غاية العقم ، ونهاية الاسفاف . لابد لنا من جديد فى الشكل وفى الموضوع ، فقد سئم الناس هذه المناظر ، وتلك الصيغ العامة التى تتكرر على لسان كل خطيب ، وتلك القصائد المهلهلة التى قلما تصدر عن القلوب ، ولذلك فهى لا تتعدى الآذان لتصل الى القلوب ..

وانه لمن اللازم أن ينصرف بعض أولى الفضل والعلم الى دراسة نواحى جديدة من حياة الرسول واعلانها للناس فى كل عام جديد ، بل انى لأذهب الى أن الهيئة التى تقع عليها تبعة توجيهنا الثقافى والروحى ملزمة أن تكوّن لجاناً وهيئات من الاختصاصيين لدراسة حياة الرسول ، والكشف عن أسرار عبقريته ، واتخاذ حفلات المولد وسيلة لاعلان ما يتجمع لديها فى كل عام ، وما تصل اليه بعد الدرس والاستقصاء العميق .

وحري بالقـادة والمفكرين والـكتاب أن يتخذوا من ذكرى ميلاد الرسول وسيلة فعالة لبعث هذه الامة ، وتجديد ما رث من نظمها ، ونواميس حياتها ، وان يبتكروا وسائل فعالة ؛ فيها سحر الابداع ، وحلاوة الجدة ، يتشوق الناس اليها ، ويتلقونها برغبة واقبال ...

وحري بالجمعيات الخيرية ، ومنشآت البر ، ودائرة الوقف ، وأصحاب الاموال والثراء ، أن يجعلوا من هذا اليوم الاغر وسيلة للاحسان ، وعمل الخير لابناء هذه الامة ليشعر المحتاجون ـ وما اكثرهم فى بلادنا ـ أنه لا يزال فى هذه الارض أناس يتأسون بأخلاق محمد ، ويبتهلون بمولده ، ويبذلون فى ذكرى ميلاده بكرم وسخاء ...

وعلى الاجمال نريد أن يكون هذا اليوم الميمون يوما زاهراً متصلاً بحياة كل فرد وكل أسرة ، وكل بيئة ؛ حاملا السرور والبهجة الى كل القلوب .

هذا بعض ما يتعلق بالشكل أما فيما يتعلق بالموضوع فأقتصر على النقاط الآتية :ـ

١ ـ التصوير الخاطىء لحالة العرب قبل البعثة النبوية .

٢ ـ التصوير الخرافى لمعجزات الرسول .

٣ ـ المغالطة فى فهم دعوة الاسلام العالمية .

٤ ـ المغالطة فى فهم دعوة الاسلام وتأكيد ناحيـة واحدة من نواحى الاسلام دون النظر اليه بوضعه وحدة تامة متماسكة لا يمكن تجزأتها ٠

وهذا ما أرجو ان أقول فيه كلمة مسهبة فى عدد قادم

II

١ ـ التصوير الخاطىء لحالة العرب قبل البعثة النبوية :ـ

يطيب لـكثير من الخطباء والشعراء والـكتاب ، حين يتحدثون عن الرسـول الـكريم وسيرته ، تصوير حالة العرب قبـل البعثة النبوية تصويرا فيه من التعميمات الخاطئة ، والابتعاد عن القصد والاعتـدال الشيء الـكثير ٠ حتى ان بعضهم لم يبق صـفة من صفات الجهل ، والانحلال ، والضعف ، الا أضافها للعرب ، ولا مثلبة من المثالب الا الصـقها بهـم ٠ فهـم ـ كمـا يطيب لؤلاء تصويرهم ـ فى جهالة جهلاء ، وانحلال خلقى ، لا ناموس ينظم مجتمعهـم ، ولا شـريعة تنتظـم أحوالهـم ، يئـدون بناتهـم ، ويتزوجون نساء آبائهم ، ويقتل قويهم ضعيفهم ، ويستبيح بعض حرمات بعضهم الآخر ، لا يرعون ذمة ، ولا يوفون بوعد ، وما الى ذلك من صفات وطبائع لا يصح ان يوصف بها ـ على اطلاقها وعموما ـ اوحش الشعوب وادناها منزلة فى الحضارة ٠

وقد يقصد هذا الفريق من هذه المغالات ان يظهر فضـل محمد على العرب ، واثره فى قلب نظام حياتهم قلباً ٠ ان فضل الرسول الـكريم على الامة العربية عظيم ، وعظيم جداً ، ما فى

ذلك ادنى ريب ، ولكن تقدير الرسول العظيم حق قدره لا يقتضينا بالضرورة الى انتقاص حال الامة التى ينتسب اليها ، وجاء لهدايتها وهداية العالم كله . فبالاضافة الى ما فى امثال هذه التعابير المفرطة من تعميمات خاطئة ، ومغالاة ظاهرة ، فأن فيها - لو أدرك الخطباء والشعراء والكتاب - شيئا كثيرا من قلة الذوق والاساءة الضمنية الى هذا النبى العظيم ذاته . وليس من المنطق أو العدل فى شىء ان يكون مدحُ محمدٍ وسيلةً للقدح فى أمة محمد التى انجبته وصحابته الغر الميامين .

ان القرآن الكريم ، والسيرة النبوية الطاهرة والاحاديث الشريفة الصحيحة ، والتفاسير القرآنية المعتبرة ، لا تسعف هؤلاء الغلاة المفرطين . فوثنية العرب قبل الاسلام ما كانت مطلقةً بل كان شركهم وسيلة للتقريب للاله الواحد « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » . ووئد البنات الذى ذكره القرآن الكريم لم يكن عاماً فى كل القبائل بل كان قاصراً على بعضها ، كما ان قتل الاولاد ذكوراً وأناثاً فى بعض البيئات المعدمة كان بسبب الفقر أو على حد التعبير القرآنى « خشية الاملاق » . وكما وجد فى العرب قبل الاسلام من يئد بناته فقد وجد بينهم من كان يفتدى اولئك الاطفال الابرياء بماله .

ولعل الواقعة التالية تصور سمو المعانى الخلقية بعض التصوير : حين اسلمت هند بنت عتبة زوج ابى سفيان وكان

الرسول 'يبين لها ما يتطلب من المرأة المسلمة الى ان قال « ولا تزنين » فأجابته بقولها : اوتزنى الحرة' ؟؟ ...

ثم ان الادب العربى يصور حال الامة العربية قبل البعثة تصويراً هو أقرب للصحة والدقة من هؤلاء المغالين من المتأخرين ومن الذين َيصدرون – فى الغالب الاعم – عن شعوبية ماكرة حاولت ان تدس على العرب ، وتسيىء اليهم بزعم تقدير الرسول وتبيان فضائله .

اننا فى هذا العصر خاصة احرياء ان نتنبه الى هذا الامر ، وان لا ننساق مع العواطف الخادعة ، فنسىء الى انفسنا وامتنا ورسولنا من دون قصدٍ أو ادراك .

٢ – التصوير الخرافى لمعجزات الرسول :–

لم يزل الكثيرون من رجال الدين فى العراق وغيرهم من الخطباء يحرصون على تصوير معجزات الرسول الكريم بصورة هى أقرب ما تكون الى الخرافة ، وأبعد ما تكون عن العقل والعلم الصحيح ، على حين ان ميزة الاسلام الكبرى على الاديان الاخرى انه ، فى جوهره ، دين عقلي' ، لا يناهض العلم ، ولا يبتعد عن قواعد المعقول . ولكنا لم نزل نسمع من بعض خطباء المنابر وغيرهم ان من معجزات الرسول تصدع ايوان كسرى ، وغور بحيرة ساوى ، وانشقاق القمر ، وحنين الحجر ، وما الى ذلك من

اخبار واسرائيليات لم تثبت فى كتاب الله ، ولم تصح فى سنة رسوله .

وكان الرسول صلوات الله عليه وسلامه جد يقظ تجاه امثال هذه التصورات الوهمية . فقد انكشفت الشمس يومَ وفاة ابنه وحبيب قلبه ابراهيم ، وظن بعض المسلمين ان الله قد كسف الشمس حزناً على ابن نبيه ووجداً عليه ، ولكن الرسول الصادق الامين لم يشأ ان يفوت هذه الفرصة ـ على الرغم من آلامه المبرحة وحزنه العميق ـ لتأكيد نواميس الكون الخالدة فقال لاصحابه : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احد ولا لحياته . » ان معجزة الرسول الكبرى ، بعد كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، خلقه وصفاته ، ومواهبه الذاتية . فهو وان كان رجلا كالناس يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ، لكن الله قد وهبه من الصفات والكمالات الانسانية والمواهب اللدنية ، ما جعلته 'معجزاً بكل معنى صحيح للاعجاز . همته العامية ، سماحته المتناهية ، عزمه الذى لا يفل ، عطفه الذى شمل الناس جميعاً ، هى بعض معجزاته التى يجب ان يؤكدها الخطباء والكتاب ان كانوا لحياة الرسول العظيم مدركين . اما الاقوال المنقولة من كتب وضعت فى عصور الانحطاط والروايات التى دست فى تراثنا الاسلامى الصحيح دساً ، فما احرانا اليوم خاصة ان ننبذها وراءنا ظهرياً ! ...

٣ ـ المغالطة فى فهم دعوة الاسلام العالمية : ـ

وكنتيجة للتصوير الخاطىء لحالة العرب قبل الاسلام ، وكنتيجة للتصوير الخرافى لمعجزات الرسول ، حرص بعض الكتاب والخطباء من المسلمين على انتزاع الرسول الكريم من بيئته العربية انتزاعا حتى كأنه مَلكٌ قد نزل من السماء ، لا تربطه بأرضه وبقومه ولغته وتراثه الموروث أى صلة مهما كان نوعها .

ان الاسلام على الرغم من طابعه العالمى (بمعنى صلاحه للعالم كله) دين قد جاء به نبيٌ عربيٌ ، ارسل لامة عربية ، جاءها بكتاب عربي مبين . « لقد جاءكم رسول من انفسكم » . « لقد انزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم افلا تعقلون » . « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . ان عشرات من الآيات القرآنية الاخرى والاحاديث النبوية تؤكد هذا المعنى اقوى تأكيد . ان أية محاولة لفصل الاسلام عن العرب ، وهم على حد ما كان يقول عمر ، « مادةٌ الاسلام » ، محاولة خاطئةٌ ، وفيها مناهضةٌ صريحة لاسس العمران ، والتفسير الصادق للتأريخ .

ان الشعوبية فى ما مضى ، وبعض النزعات المناهضة للعروبة فى الوقت الحاضر ، هى التى تتعمد اعطاء صورة شوهاء عن الاسلام لكى تبعده عن طابعه العربى . وبذلك تبعده من الواقع المعقول فى الوقت ذاته .

ومرة أخرى ليس فى قولنا هذا ما يسيىء الى الاسلام بجعله

ديناً قومياً ضيقاً ، بمعنى أنه خاص ُ بالعرب دون سواهم ، وجعله بذلك كاليهودية التى اعتبرها اليهود ديناً قومياً خاصاً بالاسرائيلين. ففى الاسلام شمول ، وفيه ُرحابة تتسع للبشر جميعاً ، وهو ينكر التعصب القومى والقبلي ، ويضع مقاييس انسانية سامية . ما فى ذلك شك . ولـكن هذا كله لا يعنى ، بحال من الاحوال ، فصله عن أمة العرب التى نزل القرآن بلسانها ، وكانت المخاطبة بالاسلام قبل الناس أجمعين .

٤ ـ المغالطة فى فهم دعوة الاسلام وتأكيد ناحية واحدة :ـ

ان من أشد ما ُيسيء الى أى عقيدة أو فلسفة ان ينظر اليها مجزأة ً ، وان يؤكد على بعض نواحيها تأكيداً شديداً حين تهمل النواحى الاخرى اهمالا تاما . اذ يؤدى ذلك الى اعطاء صورة أقل ما يقال فيها أنها ناقصة ، وقد تكون مشوهة ، بل قد تعكس معانى خاطئة بسبب هذه التجزأة المفتعلة . والاسلام قبل غيره من الاديان والنظم الاجتماعية لا يقبل التجزأة . ان قوته فى وحدته المتماسكة ، على الرغم من تشعب نواحيهـا . ان محـاولة بعض الخطبـاء فى السنوات الاخيرة خاصة . تأكيد بعض أوامر الاسلام دون البعض الآخر محاولة مكشوفة مفضوحة ، بل انتهازية ظاهرة لاستغلال الشعور الدينى على وجه غير صحيح . ومثال ذلك تأكيد الطاعة فى الاسلام مثلا لأولي الامر دون الاشارة الى ان أولي الامر يجب ان يكونوا منا ، « وأن الطاعة واجبة ما اطاع أولو الامر الله فينا فان

عصوه فلا طاعة لهم علينا » . وتأكيد صفات الصبر والتحمل دون تأكيد الجهاد ومقارعة الظلم قد يُعطى صورةً شوهاء عن الاسلام حتى ليبدوَ فى أعين بعض المفكرين وكأنه وسيلة من وسائل التخدير والاستسلام .

ان النظرة الصادقة الى الاسلام هى النظرة الشاملة التى تربط بين معتقداته الاساسية ، وفرائضه التعبدية ، وفلسفته التشريعية ، ومبادئه التهذيبية . ان هذه النظرة الصادقة هى التى تظهر الاسلام على حقيقته ، وتجعله من جديد قوة فعالة فى حياة الافراد والجماعات ، وتبعده عن الرمزية والصوفية والزهد المكذوب الذى يؤدى آخر الامر الى التواكل والكسل ثم الفناء .

هذا بعض ما يجب ان يهدف اليه من حفلات المولد الشريف والا استحالت تلك الحفلات الى مظاهر كاذبة ، ووسيلة عابثة من وسائل الحياة ، لا علاقة لها البتة بالدين ، وبذكرى الرسول الامين .

(١٠)

بعض خصائص التشريع الاسلامي[١]

ليس من السهل استخلاص الميزات العامة التى يمتاز بها التشريع الاسلامى دون دراسة وافية لمختلف نواحيه من الوجهات التاريخية ، والقانونية والاجتماعية . ولكن الناظر الى اسس هذه الشريعة وقواعدها يبصر لاول وهلة بعض الخصائص التى امتازت بها ، وطبعت بطابعها . على ان تقدير هذه الخصائص حق قدرها لن يتأتى ، على الوجه الاكمل ، الا بدراسة مقارنة عميقة للشرائع الاخرى التى سبقتها أو عاصرتها أو تخلفت عنها . وأعتقد ان فائدة هذه الدراسة المقارنة لن تقتصر على فتح مجالات جديدة للبحث ، وتوسيع افق المعارف القانونية فحسب ، بل انها ، فوق ذلك ، سترينا بجلاء فضل الشريعة الاسلامية وجدارتها لان تكون فى الطليعة بين الشرائع الخالدة .

وانها لفرصة سعيدة يتيحها لي شهر مولد صاحب هذه الشريعة لاعلان بعض خصائصها على صفحات مجلة القضاء الغراء ، اعلنها على انها آراء قابلة للبحث والمناظرة ـ كما يقول المحدثون ـ وانى لاشعر سلفاً بحاجة هذه الاراء الى الافاضة والاسهاب ، ورجائى

(١) نشر هذا المقال فى العدد (٢) من مجلة القضاء لسنة ١٩٤٤ ص (١٣٢) وكان قد نشر فى كتابى ابحاث واحاديث فى الفقه والقانون ، ولكن نظرا لتعلقه الشديد بموضوع هذا الكتاب « من روح الاسلام » رأيت من المفيد نشره فيه أيضا .

أن اوفق فى العودة اليها - أو الى بعضهاعلى الاقل - فى اعداد أخـــرى .

١ - أول طابع تتميز به الشريعة الاسلامية عن سواها - من الشــرائع الحديثــة خاصــة - هو مزجهــا بين فــكرتى « الدين » و « القانون » . وهذه الحقيقة على شدة ظهورها خفيت على كثير من الباحثين من شرقيين وغربيين ، واوقعهم فى أخطاء فادحة . وعلة ذلك . فيمــا أرى ، الخلط بين مفهــوم الدين لــدى الغــربيين ومفهومه عندنا . ذلك لان الدين عندنا لا يقتصر مداه على الامور التى تتعلق بخالص العقيدة ، وشئون التعبد ، بل انه ينتظم كل ما يتصل فى هذه الحياة والحياة الاخرى على حد سواء . وبعبارة ثانية فأن مهمة الدين الاسلامى ليست مقصورة على تنظيم علاقة الفرد بربه ، بل انها تشمل أيضا علاقة الفرد بأخيه الفرد ، والفرد بالجماعة ، والجماعة بالجماعة الاخرى .

ان هذا الشمول فى طبيعة الشريعة جعلها تعنى بكل ناحيــة مهما دقت من نواحى الحياة . ولذا نراها تقرر الحقوق وتوضــح الاحكام التى تتعلق بالفرد فى ذاته من حين يصبح مضغة فى رحم أمه ، الى ان يحثى التراب على قبره . كما أنها وضعت القواعد اللازمة لتحديد حقوق الفرد وواجباته تجــاه الهيئة العــامة . ان لاختلاف مفهوم الدين عندنا عن مفهومه لدى العربيين اثراً واضحاً فى سعة الدراسة الدينية ومداها بالنسبة للشريعة الاسلامية . فبينما

تقتصر الدراسة الدينية فى الغرب على ذات الاله وصفاته وما يتعلق بالامور الروحية والتعبدية ، نرى ان الدراسة الدينية عندنا أوسع من ذلك بكثير ، وليس ادل على هذا من اعتبار الفقه ـ وهو العلم بالمسائل الشرعية العملية ـ قسما من الدراسة الدينية . بل ان فى كلمة « فقه » ذاتها من شمول المعنى ما لا يوجد فى مقابلاتها فى اللغات الغربية ؛ اذ ان هذا المصطلح يشمل لغة مطلق المعرفة ، لان الشريعة مصدر المعارف ، والاحاطة بأحكامها احاطة تامة ، تبرر الادعاء بمطلق العلم ...

يتضح جلياً من هذا أن « الدين » و « القانون » فى أصل نظريتنا يستقيان من معين واحد ، ويرميان الى هدف واحد ، اعنى تنظيم حياة الفرد والجماعة تنظيماً يضمن لهم السعادة فى دنياهم واخراهم ، ويحقق بينهم الحياة الفاضلة ، ما وجد سبيل الى ذلك .

٢ ـ وما دام القانون والدين مرتبطين وممتزجين فى اسس شريعتنا فقد نتج عن ذلك امتزاج مفهوم « القانون » « بالاخلاق » أيضا ، امتزاجا يكاد لا يبقى لكل منهما وجوداً مستقلا . وهذا بطبيعة الحال لا يعنى ان كل قواعد الاخلاق تعد قواعد قانونية ايجابية ملزمة ، وانما المراد به ان ليس هناك احكام قانونية اسلامية قائمة بذاتها مجردة عن صفتها الاخلاقية .

والقاعدة القائلة « انما الاعمال بالنيات » قاعدة خلقية فى الاساس ولكنها أصبحت من امهات قواعد تشريعنا . وهذا

الارتباط الشديد بين « القانون » و « الاخلاق » اكسب الشريعة الاسلامية جلالاً تغبطها عليه أكثر الشرائع ، وخلصها من كثير من قسوة القواعد القانونية المجردة التى تجعل حدوداً فاصلة واضحة بين قواعد الاخلاق واحكام القانون . وهذا الارتباط قد انجاها أيضا من صرامة الشكليات والمراسيم التى ارهقت كثيرا من الشرائع قديماً وحديثاً . ولم تقترب بعض الشرائع الحديثة من الكمال الممكن الا بتضييقها منطقة النفوذ التى تعزل نطاق القانون عن حيز الاخلاق .

٣ ـ وبالنظر لهذا الاشتراك الواسع ، بل هذا الامتزاج القوى ، بين القانون والاخلاق فقد نتج امتزاج آخر بين « قواعد القانون » و « احكام العدالة » ؛ على حين ان هذا التفريق كان موجوداً فى القانون الرومانى ، ولا يزال موجوداً فى القانون الانكليزى ، حتى اليوم . ذلك لان احكام القانون الوضعى تكون فى العادة قاسية ومجردة فى الغالب عن الصفة الخلقية ، فصار من اللازم ايجاد قواعد أخرى تخفف من شدة وطأة القانون وصرامة احكامه ، وتقربه من قواعد العدل والانصاف ، ولهذا وجدت احكام (البريتور)[1] عند الرومان ، ولهذا أيضا وجدت محاكم

---

(١) Praetor حاكم قضائى وجد فى روما لتطبيق القانون المدنى الرومانى ثم اعطى سلطة تشريعية استعملها لتخفيف شدة القانون .

العدالة أو الضمير[1] عنـد الانكليز . اما القانون الاسـلامى ، أو الشريعة ، فهى فى أصل نظريتنا تستند الى فـكرة العدل ، والحـكم القانونى غير العادل لا يعتبر حكماً قانونياً أصلا لانه ينافى الشريعة من حيث الاساس[2] .

٤ ـ وبالرغم من عناية الشريعة الاسلامية بالفرد ، واعترافها بكيانه المستقل ضمن حدود ، فأنها فى طابعها العام شريعة « جماعية » لا فردية . واعنى بهذا ان الهدف الذى ترمى اليه دائماً وأبداً هو خير الجماعة ، وصالح المجموع قبل صالح الفرد . وهى بهذا الاعتبار قريبة جداً مما تقول به بعض المذاهب الاشتراكية التى قد تغالى فتنكر وجود الفرد أصلاً . واستطيع ان اضرب أمثلة عديدة تظهر هذه الحقيقة بجلاء ولـكن اكتفى بالنزر اليسير . فتقريرها لزوم تحمل الضرر الخاص فى سبيل الضرر العام ، وتسليمها بمبدأ جواز الحجر على السفيه لمصـلحة عائلته والهيأة الاجتماعية ، وتحـديدها الوصية حفظاً لمصالح الورثة ، ووضعها احكاما شاملة للميراث ، وقولها بالمصالح المرسلة ، كلها أدلة ناصعة على طابعها الجماعى .

٥ ـ وكنتيجة لطابعها الجماعى وصفتها الخلقية فأن الشريعة الاسلامية تمزج الى حد كبير بين فـكرتى « الحق » و « الواجب » . فاذا كان من حق الانسان ان يطالب بماله المغصوب فان من واجبه

---

(١) The Court of Conscience .

(٢) ومع ذلك فقد تسربت فكرة التمييز بين القانون والعدل عندنا حين صار بعض الفقهاء يفرق بين ما يجوز قضاء ولا يجوز ديانة .

ان يفعل ذلك أيضا لان فى ترك ذلك الغاصب وشأنه تشجيعاً له على التعـدى والتمادى فى الباطل ، وتشجيع المعتـدين منكر واجب الفرد الصالح ان ينهى عنه . ولئن كان من حق الانسان ان يطالب مدينه بدينه ، فأن من واجبه ان لا يرهقه فى هذه المطالبة أيضاً . بل ان من واجب الدائن ان يطالب مدينه لئلا يضيع حقـه وحق غيره ممن يعتمد عليه .

ومن نتائج امتزاج الحق بالواجب وضعت الشريعة قيوداً على تصرفات الشخص بملكه ، وانكرت الحق المطلق فى الملكية والتصرف ، ووضعت الاساس لنظرية « اساءة استعمال الحق »[1] تلك النظرية التى ظنها الـكثيرون من مبتدعات شرائع الغرب ، وهى فى أصلها اسلامية كما قرر بعض فقهاء الغرب انفسهم . ونستطيع ان نقول ان الشريعة الاسلامية تفرض وجود واجب ضمنى فى كل حق ظاهر ، ولذا أجازت الحجر على الشخص المبدد لامواله ، أى الذى يريد ان يتمتع بحق مطلق فى ملـكه ، وعدته سفيهاً قاصراً اوجبت عليه الرقابة ، وهذا مطابق كل المطابقة لفلسفة الشريعة الاسلامية لانها تعتبر التصرف فى المال حقا وواجباً فى ذات الوقت .

وهـذا التداخل بين الحق والواجب شبيه ـ الى حـد ما ـ بما

---

(١) اخذ بهذا المبدأ القانون المدنى العراقى اخيرا .

تقرره « نظرية التضامن الاجتماعى »[1] التى قال بها الفقيه الفرنسى المشهور « دوكى »[2] وهو قريب أيضا من مفهوم الحق فى فلسفة الفيلسوف الالمانى الشهير « كانت » .

٦ ـ وعلى الرغم من اصلها الدينى ، وتقيدها بأصول وقواعد لا تقبل التغيير ، ـ تلك القواعد التى هى أقرب ما تكون الى احكام القانون الطبيعى ، ومبادىء العدل المطلق ـ فأن الشريعة الاسلامية شريعة حرة الى أقصى حدود الحرية ، وتقر التطور الى حد بعيد . وهذه الحرية التى امتازت بها الشريعة الاسلامية جعلت بعضاً من نقاد الغرب يصمها تجنياً بالدعوة للفوضى والانحلال .

ان لاعتبار القاعـدة التالية القائلة « بأن الاصل فى الاشياء الاباحة » اهمية عظيمة فى التشريع الاسلامى وهى فى هذا الصدد على خلاف مع كثير من الشرائع القديمة التى تعكس حكم هـذه القاعدة تماما . وعلى هذا سميت تلك الشرائع بالثابتة والمحافظة واعتبرت الشريعة الاسلامية من الشرائع المتقدمة المتطورة على حد تصنيف الفقيه الانكليزى المشهور (السير هنرى مين) . واستطيع ان أدلل على هذه الصفة بآيات وأحاديث صحيحة عديدة ولـكنى اكتفى بآية (وما جعـل عليكم فى الدين من حرج) وبحديث

---

(١) Solidarité Sociale .

(٢) (Duguit) أنظر بحثا قيما عن فلسفته القانونية كتبه الاستاذ « لاسكى » ونشر فى ص ٥٢ ـ ٦٧ من Moderm Theories of law ان دوكى ينكر اصـــلا وجود الحق الشخصى فى المجتمـع وهو يأكد وجود الواجب فقط .

(يسروا ولا تعسروا) ، للاستدلال على صفة الحرية هذه تاركاً لمن يريد المزيد الرجوع الى امهات كتب الفقه واصول الفقه .

ثم ان اعطاء الشريعة للعرف المتفق عليه قوة القانون ، وتقريرها « بان ما رآه المسلمون حسناً فهوعند الله حسن » ، وتحكيمها للعادة ، واعتبارها القياس ، (وهو وسيلة الاجتهاد الفعالة) مصدراً من مصادر التشريع ، وفتحها باب الاجتهاد – لمن توفرت فيه شروطه – على مصراعيه ، وذهاب بعض الفقهاء الى مساغ الاجتهاد حتى فى مورد النص أحياناً ، كل اولئك أدلة ناصعة على ما امتازت به الشريعة من الحرية .

بل ان تشدد فقهاء المسلمين فى لزوم انطباق الايجاب على القبول انطباقاً تاماً لم يكن الا نتيجة للمبالغة فى حرية الارادة اللازمة فى تكوين العقود الصحيحة .

وعندى ان ذهاب بعض الفقهاء الى جواز ترك القياس الظاهر (متى ما أدى الى شدة لا تتناسب ومبدأ الحسنى وامتناع الحرج) ، والاخذ بالقياس الخفي – على حد تعبير الاصوليين – أى « الاستحسان » لدليل ساطع على ما امتازت به الشريعة من حرية وايمان بالتطور لا يجارى .

هذه بعض خصائص الشريعة الاسلامية ، وهى لا تفيد الحصر ولا الاطلاق ولكنها خصائص من الحق على من يدرس هذه الشريعة ان يدركها قبل الحكم لها أو عليها .

وانه لمن المؤسف حقاً ان تستحيل هذه الشريعة الفذة المبدعة الى العقم والجمود الذى جاءت للقضاء عليه . وعلة ذلك ـ فيما أرى ويراه كل منصف ـ لا ترجع الى وهن فى الشريعة ذاتها ، بل الى عوامل عديدة خارجة عن نطاقها . ذلك لان الشريعة ـ كاللغة وككل كائن حى ـ تتقدم بتقدم المجتمع العام وتنحط بانحطاطه ، وان المصائب الجمة ؛ (من فقر ، وجهل ، ومرض ، وهوان ، وظلم) ، التى مرت على الامة العربية والامة الاسلامية عامة طوال القرون السحيقة ، قد اوهنتها وافقدتها بهجتها ، وجعلت مقومات حضارتها تظهر فى أعين الناس واهية هزيلة .

ومتى دبت الحياة ، وظهرت القوة ـ بكل معانيها ـ فى جسم هذه الامة ، وعرفت قدر نفسها ، ظهر من جديد جمال شريعتها ، وانبثق نورها وجلالها .

(١١)

الجماعية في الاسلام[١]

تنزع كثير من الاديان السماوية وغير السماوية ، كما تنزع بعض المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، الى احد اتجاهين رئيسيين ؛ هما « الاتجاه الفردى » ، و « الاتجاه الجماعى » . وبمعنى انها اما ان تجعل الفرد ـ من حيث هو كائن حى له ارادته المستقلة ـ هدفها الاول ، واما ان تجعل الجماعة ـ من حيث هى كيان كلي وعضوية اجتماعية ـ لها خصائصها العامة المشتركة ـ غايتها الاساسية .

وبعبارة أدق فأنها اما ان تجعل الافضلية والصدارة فى نظمها وتشريعاتها وأهدافها ، صالح الفرد المفرد ، أو أنها تجعل مصلحة الجماعة الكلية رائدها الاساسى وموضع عنايتها المفضلة .

ولاشك ان الافراط والمغالاة فى أى من هذين الاتجاهين يؤدى آخر الامر الى نتائج هى فى غاية الخطورة والاهمية بالنسبة للفرد والمجموع . فهى اما ان تؤدى الى الفردية المفرطة ، والتحكم الانانى ، والتسيب الاقتصادى ، والانحلال الاجتماعى ، حين نشدد على معانى المذهب الاول ، ونغالي فى تطبيقه كل المغالاة ، وهى اما ان تؤدى الى المركزية العنيفة ، والتدخل الشديد فى حياة

---

(١) خلاصة المحاضرة التى كنت قد القيتها على فريق من زملائى المعتقلين فى معتقل الفاو وذلك سنة ١٩٤٢ .

الاشخاص بحيث يستحيل الافراد ، آخر الامر ، الى ما يشبه القطيع المنعدم الارادة والذى يتحكم فيه الراعى تحكما مطلقا مما قد يؤدى الى اقامة حكم عظـامى Totaleterianism (أو حكم كلي كمـا يؤثر ان يترجمه بعضهم) ، كالنظام الفاشى ، وبعض النظم الاخرى القائمة على أساس طبقى ٠

ولاشك ان الفلسفة المثلى ، والنظام المفضل فى هذا الشأن هو الذى يستطيع ان يوفق بين قاعدتى : « وجد العالم من أجلى » ٠ و « وجدتُ من أجل العـالم » ٠ كما يقول الفقيه الالمانى « فون يرنك » بحيث لا تطغى ـ الفردية ـ من جهة ، ولا تطغى ـ الغيرية ـ أو الجماعية من جهة أخرى ٠

ان الاسلام بوصفه نظاما اجتماعيا ، وفلسفة حياتية ، يهدف فى واقع الحال الى هذه الغاية ٠ وقد وفق من وضع الاحكام والنظم المختلفة ما هو كفيل بتحقيقها لو انها طبقت على وجهها الصحيح المعقول ٠

ومع ذلك ، وعلى الرغم من عـدم نكرانه للفرد ، وتسـليمه بحقوقه المتميزة ، فان الاسلام يصح اعتباره ، من حيث الاساس ، دين جماعى على معنى من المعانى ٠ أى انه كالـكونفوشيوسية ، وككثير من المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ٠ وهو بهذا الاعتبار يختلف عن المسيحية والبوذية التى تعد ديانات فردية ، أى ان هدفها الاول الفرد ، من حيث هو فرد ، حين يكون هـدف

الاسلام الاساسى الجماعة ، من حيث هى كتلة بشرية لها مصلحتها النهائية الواحدة المشتركة .

ونستطيع ان نضع هذه القاعدة بعبارة أخرى : هى ان الاسلام دين ودولة ، حين تقف المسيحية مثلا عند مفهوم الدين الخاص بالمعنى الضيق المحدود . فهى ، لاعتبارات تاريخية لا مجال لسردها هنا ، قد اقتصرت على الفرد ؛ صلاحه تهذيبه ، تغذية روحه رفع مستواه الادبى ، وما الى ذلك من غايات ، حين عُني الاسلام ، بالاضافة الى هذا كله ، بالجماعة ؛ تنظيمها ، سياستها ، علاقتها بالجماعات الاخرى ، سلمها ، وحربها ، ونظامها الاقتصادى والاجتماعى ونحو ذلك .

ولكى نستطيع ان نفهم (الجماعية) من حيث الاساس يجدر بنا ان ننظر فى خصائص النظام الجماعى بشىء من التركيز .

وعلى العموم نستطيع ان نلخص أهم خصائص النظم الجماعية بما يأتى :

١ ـ العناية بالمجموع بالدرجة الاولى بمعنى انها تنظر الى الهيئة العامة حين تضع احكامها ، ولا تنظر الى الفرد الا بوصفه جزءاً من الكل وتابعاً لهذا الكل .

٢ ـ ان الاخلاق التى تدعو اليها النظم الكلية اخلاق ايجابية كالاخلاص ، والتضحية ، والتعاون والجهاد ، والتناصر بينما

تؤكد النظم الفردية صفات سلبية كالحب والرحمة والعفو والتسامح والصبر .

٣ ـ تجعل الجماعية الحياة ارادة ، وهى لذلك تعنى بالواجب أكثر من عنايتها بالحق ، حين تجعل النظم الفردية الحياة طبيعية وتؤكد حق الفرد أكثر من تأكيدها لواجبه .

٤ ـ تنتج الجماعية فى الغالب حضارة مفعمة بالبطولات ، بينما تقيم الفردية مدنيات مترفة . وعلى العموم تعنى بعض النظم الجماعية بالروح أكثر من عنايتها بالعقل ، حين يكون الحال بالنسبة للنظم الفردية تأكيد القيم العقلية الى حد التغافل عن الروح فى احيان كثيرة .

ونحن اذا أردنا ان نطبق هذه الخصائص على الاسلام نجدها متوفرة فيه الى حد بعيد ، مع ملاحظة ان الاسلام يقف وسطاً فى نجوة من افراط هذا المذهب ، أو تفريط ذاك . وحين يؤكد بعض النواحى التى تجعله ديناً جماعياً لا يغفل ما فى الفردية من صفات نافعة فلا يهملها اهمالا تاما وانما يسعى للاخذ بها الى الحد الذى لا تتعارض مع نزعته الجماعية الاصيلة .

ويحسن بنا ان نضرب بعض الامثلة لتوضيح هذه الفكرة . فالعناية بالمجتمع من حيث هو كل ظاهرة فى أكثر من آية واحدة وحديث واحد . ان فرائض الاسلام ذاتها تؤكد هذا المعنى ؛ فالنطق بالشهادتين مثلا لم يكتف فيهما بتصديق القلب بل

يتطلب تقرير اللسان ، بمعنى الاعلان للجماعة كلها . والصلاة هى وان تبدو ذات تعبد فردى ، ولكن تفضيل صلاة الجماعة على صلاة الفرد من جهة ، ولزوم صلاة الجماعة مرة فى الاسبوع على الاقل من جهة أخرى ، تؤكد هذا المعنى الجماعى الذى اشرت اليه . والحج هو من دون شك مظهر ، للجماعية ، والزكاة قائمة على اسس تضامنية فى المجتمع وهى وسيلة الاسلام لتحقيق العدالة الاجتماعية . بل ان تعريف الدين بالمعاملة (أى صلة الفرد بالجماعة) دليل على هذه النزعة الجماعية .

وللنظر الى بعض صفات المؤمنين كما صورها القرآن الكريم : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم اولئك هم الصادقون » . وكثيرا ما استوقفتنى عبارة وجاهدوا بأموالهم وانفسهم . فقد كان بالامكان الاكتفاء بالايمان وحده لتحقيق صفة الايمان ، ولكن طابع الايجابية الذى هو من خصائص الجماعية الاساسية يدعو الى ضم صفات أخرى ظاهرة الفعالية فى طبيعتها كالجهاد . وآية « البر » واضحة فى تأكيد هذا المعنى ، فبعد ذكر الايمان بالله واليوم الآخر والكتاب ، اشترطت صفات ايجابية ظاهرة : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ... » وأضاف صفات فى غاية الروعة ؛ ايتاء الزكاة ، والايفاء بالعهد . ويخلص من هذه الآية الكريمة ان ليس البر مجرد العبادة ، ولا مجرد الاعتقاد

بالله وملائكته وكتبه ، بل لابد من صفات ايجابية تخص الجماعة كلها ، وتؤكد الاخلاق الايجابية التى هى من أبرز خصائص الجماعية .

ويؤيد هذا المعنى أحسن تأييد الحديث الشريف الآتى : « امرنى ربى بتسع ؛ الاخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضى ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن اعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، واعطى من حرمنى ، وان يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرة » .

ففى ست من هذه الصفات ؛ الاخلاص ، والعدل ، والقصد ، (أى الاعتدال) ، والعفو والايصال ، والاعطاء تظهر الروح الايجابية كل الظهور . بل ان فى قوله عليه السلام « نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة » تحقيق لمعنى الايجابية فى سلوكه الفردى المثالى .

ان « الاخلاص » و « العدل » من أهم الصفات التى أكدها الاسلام حتى اعتبر الاخلاص مرادفا للتوحيد ، كما سميت سورة « قل هو الله احد » سورة الاخلاص . و « العدل » هو طابع الاسلام الذى يتميز به . فحين يصح ان نرمز للمسيحية بصفة واحدة هى « الحب » وهى صفة فردية انفعالية ، يصح ان نصف الاسلام بكلمة واحدة هى « العدل » . وليس العدل الاسلامى هو العدل مع الاصحاب أو الاحباء كما يتساءل سقراط كما جاء فى الحوار

الطريف المدون فى صدر جمهورية افلاطون أو العدل الآني ، أو العدل الموصوف بأى صفة أخرى كما تقرر بعض النظريات القانونية الحديثة ، بل انه العدل المطلق : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . بل ان المسلم مطالب ان يعدل حتى مع من يكره . وليس من طبائع الاشياء الا يكره الانسان أشخاصا ، أو فعالا . ولكن المسلم الحق ، ذى الخلق الايجابى المتين ، مطالب بالعدل حتى مع هـذا الذى يكرهه ، أو تجاه ما يكره مطلقا . « يا ايها الذين آمنوا لا يجر منكم شنئان قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ثم ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هما رمز الايجابية ، ودليل الارادة الصادقة الموجهة ، وهما مظهر الشعور بالواجب تجاه الغير ، أى العناية بالمجتمع ، أو الـكيان الـكلي للافراد . « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ان الصفات السلبية تكتفى من الانسان ان لا يكون شريرا ، ولـكن الصفات الايجابية تفرض عليه ان يقاوم الشر ، وان يقاومه بكل وسيلة مستطاعة ، فان عجز عن الفعل ، فلا بأس عندئذٍ من المقاومة النفسية ، أى مقت المنكر فى قلب الانسان ذاته . وهذا هو معنى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكرا فليقومه ؛ بيده ، فأن لم يستطع فبلسانه ، فأن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

ان طابع الاسلام الجماعى ظاهر فى تشريعاته المختلفة ، واحكامه

العديدة • فأحكام الميراث قائمة على أساس توسعة الصلة بين المتوفى ، وبين من يحل محله على أساس من الترابط الاجتماعى ، والصلة النسبية • وتحديد الوصية بالثلث وعدم ترك المتوفى حرا مطلق التصرف فى ماله دليل على تقيده لحماية الجماعة ، « أى أقرب الناس اليه من الوارثين » على حين ان كثيرا من النظم الفردية تطلق يد الشخص فى التصرف فى ماله بعد وفاته بالطريقة التى يشاؤها هو بمحض ارادته الفردية •

بل ان عقد الزواج فى الاسلام قائم على أساس حفظ كيان الجماعة وان غايته الاساسية النسل وتوثيق الصلات بين الجنسين وتحقيق « السكن » بمعناه الشامل الدقيق ، وهو مظهر الروح الجماعية • وتأكيد موضوع الكفاءة فى الزواج ، كما اقرها بعض الفقهاء ، مظهر من مظاهر الجماعية أيضا •

بل اننا اذا نظرنا الى الافعال المحرمة تأكد فيها الطابع الجماعى بشكل واضح صريح فالخمرة فى الاسلام حرام على الرغم من انها قد تكون بالقدر القليل نافعة للفرد المفرد فى انعاشه او اراحة أعصابه فترة قصيرة ، ولكن اثرها الاجتماعى عظيم • فقد دلت الاحصاءات ، وتجارب الامم الحديثة على ان علاقة الخمرة بالاجرام أوثق علاقة • وان كثيرا من الجرائم تزداد بنسبة طردية بأزدياد استهلاك الخمور • ولاشك ان هذا المعنى هو الذى اراده القرآن الكريم حين ذكر ان فى الخمر والميسر منافع للناس ولكن

اثمهما أكبر من نفعهما . فضرر الجماعة من شيوع استعمال المسكرات أعظم بكثير من المنافع الجزئية الفردية التى قد ينالها الشخص بسبب تناول قليل من الخمر . وسداً للذرائع ، ورعاية للصالح العام ، أى صالح الجماعة قرر فقهاؤنا بأن ما اسكر كثيره فقليله حرام .

والروح الجماعية ظاهرة فى العقوبات أو الحدود كما يسميها فقهاؤنا . فلنتأمل قليلا فى هذه الآية الكريمة « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا » . فالجريمة ليست ضد شخص المجنى عليه بل انها ضد الجماعة كلها أى أنها ضد الهيئة العامة كما نقول بلغتنا القانونية الحديثة .

وعلى العموم فحينما نظرنا فى تعاليم الاسلام ، وعقائده ، واحكامه ، وتشريعاته ، تجلت لنا الروح الجماعية جلية ظاهرة . وقد ساعدت تلك الروح على اشادة حضارة مفعمة بالروح الساخنة مما قد تحيلنا الافاضة فى ذكرها عن طبيعة هذا الموضوع الموجز .

(١٢)

حكمة الصيام في الاسلام

I

اثر الصوم في التربية الذاتية

حينما طلبت الي مديرية الاذاعة العراقية التحدث اليكم فى سلسلة أحاديث عن « حكمة الصيام فى الاسلام » لم أتردد بادىء الامر كثيراً فى اجابة هذا الطلب ، فالعنوان شيق ، والمناسبة مغرية ، والناس فى هذا الشهر - فيما يخال إلي - على استعداد لا بأس به للانصات لامثال هذه الاحاديث ...

ولكنى حينما بدأت افكر مليا فى هذا الموضوع وجدتنى فى حيرة من امرى ، فالعنوان الواسع هذا يحتمل القول الكثير ، والوقت المحدد يتطلب الايجاز التام . ثم انه ليس من اليسير معرفة ما يجب ان يقال ، وما يجب ان لا يقال ، مراعاة لمقتضى الحال ، فى طبيعة الاحاديث التى تبث للكافة من دار الاذاعة ...

هذا بالاضافة لعلمى بان المستمعين يختلفون أشد الاختلاف فى معارفهم ، واذواقهم ، ومستواهم الثقافى ، ومن حقهم جميعا - على تباين اذواقهم ، واختلاف مداركهم - أن يجدوا فيما يستمعون اليه - على أقل تقدير - شيئا نافعا وممتعا فى الوقت ذاته ، وألا فيكونون قد اضاعوا فى الانصات وقتهم سدى . من حق المستمعين

(١) القى هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية فى ٦ رمضان ١٣٦٩ .

كافة على المتحدثين جميعا ان يجدوا فى الاحاديث والقصائد والخطب متعة تغذى أذواقهم ، وفائدة تنير عقولهم ، وطرفا تسرى عنهم بعض هذا العناء والضيق الذى يحسونه ...

وثمة ناحية أخرى زادت فى حيرتى هو شعورى العميق بأن اكثر الناس تمل - كما أمل - القول المعاد المكرور ، والمعانى المترادفة ، والمواضيع المطروقة . وانهم قد سمعوا منذ مستهل هذا الشهر المبارك الشىء الكثير عن رمضان ، وحكمة الصوم ، وفوائد الصيام ، وان الكثيرين منهم قد انصتوا الى مواعظَ عديدةٍ عن أجر الصائم ، وثوابه الاخروى . وعلى هذا فلن اطيل القول فى هذه النواحى ، ولن اتبسط فى تعداد ما يجنيه الصائم من فوائد جَمةٍ من النواحى الصحية والاجتماعية والدينية . ولكنى ساقصر حديثى فى هذا المساء على ناحية واحدة : وهى « اثر الصوم فى تربية النفس الانسانية تربية ذاتية » . وفى هذه الناحية تكمن - فيما أرى - حكمة الصوم الاساسية فى الاسلام ...

فُرض الصوم على المسلمين فى شهر شعبان من العام الهجرى الثانى ، والمسلمون ، فى مشارق الارض ومغاربها ، منذ ذلك التأريخ الى يوم الناس هذا - والى ما شاء الله من مقبل الاعوام - يؤدون هذه الفريضة بنفوس راضية مطمئنة ، وقلوب تخفق بطلب الرحمة والرضوان ، غير مبالين بما قد يرونه من بعض المشاق من تحمل هذه الامانة والقيام بهذا الفرض . وقد يأتيهم رمضان فى

حمارة الصيف ، أو قر الشتاء ، كما قد يمرُ بهم فى فصول معتدلة ، ونهار قصير . ترى ما هى الحكمة من هذه الفريضة المفروضة على كل مسلم عاقل بالغ صحيح ، هذه الفريضة التى يستوى فى تحملها الرجل والمرأة ، والغنى والفقير ، والسيد والمسود ، هذه الفريضة التى لا يعذر عن القيام بها الا المريض والمسافر أو من هو فى حكمهما من شيخ طاعن وامرأة مرضع ؟؟

وهل لهذا الغرض الدينى من اثر فعال فى تقويم الانفس ، وتهذيب سلوك الآدميين ؟ وهل ادرك المسلمون اليوم هذا الواجب العظيم ادراكا تاما ، وهل قدروه حق قدره ؟ ام انهم نظروا اليه كنظرتهم الى سائر العبادات والاحكام ، حسبوها طقوسا شكلية ، ومراسيم معينة ، لا اثر فيها للروح المتجلية ، ولا غاية بعيدة ترتجى منها ؟

يحسب فريق من الجهال أن الصوم هو مجرد الامتناع عن الطعام والشراب ، وما فى حكمهما ، من بزوغ الفجر الى غروب الشمس من كل يوم من أيام شهر رمضان فمن فعل ذلك فهو صائم وكفى . والحقيقة ان الصوم الشرعى لأعمق من ذلك وابعد منه مدى . « انه الامتناع المطلق عن كل المآثم » ، فهو يعنى - فيما يعنى - بالاضافة الى الامتناع عن الطعام والشراب فى الوقت المحدود - تنزيهُ السمع عن كل ما يشين سماعه ، وغضُ البصرِ عن المحرمات ، وكفُ اللسان عن لغو الحديث ، ناهيك عن باطله ،

ورفعُ اليـد عن كل امر منهى عنـه ، وحرف القلب لذكـر الله والتفكير بكل جليل ، وصرفه عن كل الهواجس وافكار السوء ...
ذلك هو الصـوم بمعنـاه الشرعى الصـحيح ، وتلك هى أهـم شروطه ...

أفيستطيع عاقل ان يمارى فى فائدة هذه الفريضة ، ويجادل فى عظيم نفعها فى تقويم السـلوك ، وتهذيب الاخـلاق ، ورفع النفس الانسانية الى أعلى مراتب الـكمال ، والعروج بها الى آفاق ليس فى مقدور غير النفوس المؤمنة العروج اليها ؟ . هذا ومن تمام شروط الصوم المبرور ان لا يفطر الصائم الا على طعام حصـل عليه بكده المشروع ، فلا يدخل فى جوفه الا ما يعلم من اين جاء به ، ثم انه لا يكثر من طعامه بحيث يمتلىء جوفه ، ويرهق معدته ، ويضيع على نفسه فضائل الصوم وبعض غاياته .

الصوم عبادة خالصة لا تشوبها أية شائبة من المظاهر ، وهو رياضة للنفس على احتمال ما تكره ، والصبر عما تحب ، وفيه ابتلاء للارادة ، وشحذ" للعزائم ، وتمرين ذاتى للقوى الـكامنة فى كل نفس مؤمنة . وهو بالاضافة الى كونه فرض دينى - كتب على المسلمين كما كتب على اللذين من قبلهم - نظام خلقى كان القدامى من فلاسفة العالم قبل الاسلام يفرضونه على انفسهم فرضا ، ليصلوا به الى حالة « الاشراق » و « الصفاء » ليتمكنوا به من الوصول الى حقائق الـكون ، واستكناه أسرار الوجود ...

والدين الاسلامى حينما جعل الصوم فريضة من فروضه لم يريد بذلك - كما قد يخال لبعض المتحذلقة من انصاف المتعلمين - ان يعذب نفوس الصائمين ، بل اراد ان يجعل من نفس كل مسلم ومسلمة ، بطلا ، اخضع شهوات نفسه ، وقاد عنان ذاته ، ومرن على تحمل الصعاب ، فهو حرى بأن لا يقهر ، ولا يذل ، ولا يستكين . هو كالجندى المدرب المبعأ متحفز دائما وابدا للوثوب ، مستعد لدفع مختلف المساوىء والشرور عن نفسه وعن مجتمعه وامته .

والاسلام ، من حيث هو فلسفة ونظام ، دين جماعى فى اسسه وفرائضه ، ينظر الى الفرد من حيث هو جزء من كل صالح ، وهو لا يعنى بهذا الفرد كثيرا مجردا عن مجتمعه ، ولهذا فرض الصوم ليصير الفرد عضوا نافعا فى مجموع صالح . وقد يكون فى الصوم - اذا ما نظرنا اليه نظرة مادية فردية - بعض العسر وبعض المشقة ، ولكنه من جهة نظر الجماعة فرض لازب ، وضرورة لازمة ، ذلك لان الاسلام يريد ان يشيد حضارة مفعمة بالمثل ، امتزجت فيها القيم الروحية بالاعتبارات المادية ، وهو لا يهدف لان يحقق للانسان فى هذه الحياة الدنيا مدنية مادية مترفة تنطلق فيها الغرائز والملذات الى أقصى حدود الانطلاق ...

هذا هو الصوم الذى شرعه الله ، وجعله ركنا مكينا من أركان هذا الدين الحنيف ، وتلك هي حكمته . ولكن المسلمين ، ويا

للاسف ، لم يدركوا هذا الامر على وجهه الصحيح ، حسبه اكثر الشباب المثقف عبئاً ثقيلا ، وعنتا لا طائل فيه ، فتركوه وراءهم ظهريا ، واستباحوا حرمته ، وجهروا بالافطار جهاراً ، وحسبه أكثر الناس امتناعاً مجرداً عن الطعام والشراب فلم يستفيدوا منه الفائدة المرجوة واضاعوا غايته الحقيقية ، وصح فيهم قول الرسول الكريم « كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والطعش » ...

(١٣)

حكمة الصيام في الاسلام

II

هل في الصوم تعذيب للنفس ؟

تحدثت اليكم فى الاسبوع المنصرم عن حكمة الصوم فى الاسلام وهى كما أراها : تهذيب النفس الانسانية تهذيبا ذاتيا ، واعدادها اعداداً تاماً لتحمل التبعات الجسام الملقاة عليها فى هذه الحياة . وأريد ان أتحدث فى هذا المساء ، عن ناحية أخرى وثيقة الصلة بهذا الموضوع ، وهى كثيرا ما كانت سبب تساؤل ، وتجادل ، بين الناس ، حينما يذكرون الصوم وحكمة تشريعه ، واعنى بها : هل فرض الصوم على المسلمين لتعذيب النفس ، وأخذها بالشدة الشديدة ، والقسوة البالغة ؟ وبعبارة أخرى هل ينحو الاسلام منحى بعض عقائد قدماء الهنود حينما كانوا يفرضونه على الانسان رياضات جسيمة عاتية ، ويتطلبون منه ان يتحمل أنواع العذاب ، وذلك لتطهير النفس من ادران المادة واوضارها ؟ . هل الاسلام يقرر ـ كما يقرر بعض فلاسفة الشرق ـ ان لا سبيل الى السعادة الحقة الا بتعذيب النفس ، وارهاق الجسم ، ونكران الذات نكرانا تاما ؟؟

وقد يكون من المفيد قبل الاجابة على هذا السؤال ، وقبل بيان

---

(١) ألقى من دار الاذاعة فى ١٢ رمضان ١٣٦٩ .

وجهة نظر الاسلام فى هذه القضية ، ان نستعرض بعض المراحل التاريخية التى مر بها « الصوم » لدى بعض الاقوام السالفة …

فمن المعلوم بأن قدماء المصريين قد عرفوا الصوم ومارسوه ، كما ثبت تأريخيا بان الهنود ، والصينيين ، واليهود ، والاغريق ، وغيرهم من اجناس العالم وشعوبه قد عرفوا الصوم وطبقوه بصورة من الصور ، وعلى شكل من الاشكال . ويذهب فريق من الباحثين فى تأريخ الشرائع الى أن الصوم فى اصل نشوئه كان اثرا من آثار « عبادة الموتى » و « تقديس ذكرى الاجداد » وقد نشأ ، أول ما نشأ ، من شعور الحزن لفراقهم ، والاسى على وفاتهم ، ولذا كانوا يتركون الطعام والشراب وبعض الملذات الاخرى ، بعدهم أمداً قد يقصر أو يطول ، حسب أهمية الفقيد ، وطاقة الصائم . ويبقى المرء على صومه هذا الى ان تهدأ نفسه ، وتزول عنه لوعة الحزن والاسى . ثم تطور الصوم فيما بعد فصار لدى بعض الجماعات البشرية القديمة مظهرا من مظاهر ايلام النفس لتطهر بهذا التعذيب من الخطايا والآثام …

ولكن حكمة الصيام فى الشريعة الاسلامية تختلف عن هذا كل الاختلاف . ففكرة أيلام النفس وتعذيبها وانكار ذاتيتها بالمرة غير مقبولة فى الاسلام ، وليس فى تعاليم الدين الاسلامى ومبادئه وعباداته ما يشير اليها فى قليل أو كثير . بل على العكس من هذا فان الضيق والحرج مرفوعان عن المسلمين ، وقد جعل الله دينهم

ـ دين الفطرة ـ يسراً لا عسر فيه . وقد رفع من منزلة الانسان ، وجعله خليفته فى أرضه ، واقسم بالنفس الانسانية تعظيما لها . فى سورة الشمس « ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . فقد جعلت هذه الآية الكريمة رفعة النفس واعلاء شأنها طريق الفلاح ، وتدنيسها والحط من قدرها طريق الخيبة . وليس من رفعة النفس فى شىء تعذيبها وانكار حقوقها .

ومن علائم النفس رفعة النفس الانسانية انها قد منحت قوة التمييز بين الخير والشر . وقد أشاد الله تعالى بمن زكى نفسه ، أى نماها واعلى قدرها ، حتى يبلغها ما هى مستعدة بالفطرة لبلوغه من مراقى الكمال ...

والصوم فى الاسلام طريق من طرق زكاة النفس ورفعتها ، وهو أقرب ما يكون لتقرير ذاتيتها لا نكران وجودها . وهو لعزها لا لتعذيبها ، وقد ورد فى الحديث الشريف « لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم » .

والفرق عظيم بين من يصوم تعذيبا للنفس ، وايغالا فى ايلامها ، وبين من يصوم محتسبا اعتقادا منه ان الصوم وسيلة لزكاة النفس ورفعتها . والفرق بين الحالين كالفرق بين السجين الذى يكبل بالحديد ، ويرسف تحت اعباء الاصفاد ، وبين الرياضى الذى يحمل الاثقال ، ويقوم بأعنف الحركات . كلاهما فى ظاهر

الحال يتحمل اعباءً ثقالاً ، ولـكنهما يختلفان فى الغـاية المقصودة اشد الاختلاف ؛ ذلك سجين حكم عليه بالاشغال الشاقة والعقاب الصارم ، وهذا طليق يكلف نفسه المشاق فى سبيل المران وتقوية عضلاته ، وتنمية جسمه ، حتى يفوز آخر الامر ٠

وقد يدق فهم الفرق بين الحالتين على من يبصر الامور على ظاهرها ، ولا ينظر اليهـا بعين بصيرته ، ليتوغل فى أدراك كنه الاشياء ولبابها ٠٠ وقد نظر أكثر الناس الى الصوم نظرة سطحية وحكموا عليه بمظهره الخارجي ، وعسر عليهم ادراك حكمه ، وفقه حكمته فحسبوه تعذيبا وايلاما ، ولا شيء غير ذلك ٠٠٠

واذكر بهذه المناسبة ـ والشيء بالشيء يذكر ـ حديثا جرى لى قبل سنوات عديدة مع شاب انكليزى انعقدت بينى وبينه اواصر الصـداقة ، وعرف بعض الشـيء عن شئوني الخاصـة ومعتقداتى الدينية ، وكنا نسكن سوية فى منزل من تلك المنازل العديدة المعدة لسكنى الطلاب فى لندن ٠ اذ بينما كنا نتمشى سوية ذات مرة فى منتزه قريب من دار سكنانا ، وكان الموسم شتاءً والوقت عصراً ، والشهر شهر رمضان ، التفت الي وبدأ يخاطبنى باستحياء متكلف ، وأدب لا يخلو من بعض التصنع : قال : انى لأعجبُ منك أشد العجب ، شاب فى عنفوان الشباب ، وطالب جامعى يسكن هذه المدينة العظيمة ، ومع ذلك لا تزال على معتقداتك القديمة ، ترضى بتعذيب نفسك بالامتناع عن الطعام طوال هـذا النهار القارس

البرد ، وتسمى هذا التعذيب لنفسك صياماً .. قل لي بربك أليس في هذا ارهاق لجسمك الناحل ، وعذاب لا يبرره العقل ؟؟

عندئذٍ التفت الى صاحبى وقلت له ان الصوم الذى أمارسه والذى هو فرض دينى واجب عليّ اداؤه حيثما أكون ، فليس من المعاذير الشرعية تركه لاننى فى بلد غير بلدى ما دمت أطيقه ، وفروض الاسلام غير مقيدة بزمان ولا مكان . هذا ولو كنت اعتقد ان الصوم تعذيب ، للنفس وارهاق للجسم وكفى ، لا نكرته كما تنكره أنت ، ولكننى لا اشاركك الرأى فيما ذهبت اليه ، فليست الغاية من الصوم تعذيب النفس بأى حال من الاحوال .. ثم أخذت أشرح له بعض فوائد الصوم وحكمة تشريعه كما هى ، لا كما كان هو يتصورها من قبل ، وبعد نهاية الحديث أخذ بالاعتذار منى عما بدر منه ، واعلمنى انه كان يجهل تمام الجهل حكمة الصوم فى الاسلام ...

ولست أسوق هذا الحديث لاتبجح بالاعلان بأنى كنت اصوم رمضان وانا طالب علم فى انكلترة ذلك لانى اعلم علم اليقين بأن الرياء - والتبجح مظهر من مظاهر الرياء - مبطل للعبادات جميعها ، وهو مبطل بصورة خاصة لفريضة الصوم ، هذا بالاضافة الى انه ليس لانسان عاقل ان يتبجح لقيامه بواجباته الدينية أو الوطنية ، ولا يفعل ذلك الا جاهل دعيّ ، ثم ان الصوم عبادة خالصة لله وهو الذى يجزى به على حد ما جاء فى الحديث القدسى ...

بل لست اسوق هذا الحديث لبيان تفوقى وانتصارى فى الجدل على أجنبى ربما لم يكن ليعرف عن الاسلام الا اسمه ، والا ما طبع فى ذهنه من صور مزيفة لفقتها خلال العصور العديدة ، خيالات المتعصبين من رجال الدين ومن على شاكلتهم من الغربيين ، فليس فى هذا الانتصار كبير فخر ، ولكنى اسوق هذا الحديث لادل على مقدار الجهل الذى يسود العالم حول الاسلام ومبادئه ، ولأدلل على مقدار الحاجة الكبيرة لشرح احكام الاسلام وحكمة تشريعه للعالم اجمع ...

وقد لا يضير صاحبى الانكليزى هذا كثيرا ان لا يعرف الاسلام على وجهه الصحيح ، وان لا يفقه حكمة الصوم فيه . ولكن يسيء كثيرا ، ويحزن كثيرا ، ان ترى المسلمين ، وشبابهم خاصة - وشبابهم المثقف بالثقافة الحديثة على الاخص - يجهلون احكام الاسلام ، ويعدون التفقه فيها ، وادراك حكمتها ، والبحث فى فلسفتها ، اشتغالا بالعبث ، واضاعة للوقت سدى ، ولذا تراهم - فى غالبيتهم - يكونون آراءهم عن الاسلام ، وتعاليمه ، واسسه ، كما كوّن ذلك الانكليزى رأيه من النظرة السطحية ، أو الفكرة العارضة ، والمعلومات التافهة الملفقة التى يحصلون عليها من هنا وهناك ، والتى يتقبلونها كأنها حقائق لا مجال للشك فيها ، من دون تمحيص أو تدقيق . وقد بهرهم الغرب بتفوقه المادى ، وقوته العسكرية ، وتقدمه العلمى ، ومظاهر تمدنه التى لا تحصى ،

ونسوا ان هناك فى هذا الكون أشياء هى فوق المادة ، وفوق المدنية ، وفوق العلم الذى لا يخرج عن حيز المادة • هناك القيم الروحية ، والاعتبارات الخلقية ، والمبادىء الدينية التى لولاها لاصبحت الحياة جحيما لا يطاق ، وصراعا هائلا بين قوى الشر والفساد ، ولولاها لما استقر فى هذا الكون نظام ، ولما تميزت الفضيلة عن الرذيلة ، ولما قامت فى هذه الدنيا حضارة من الحضارات •••

(١٤)

حكمة الصوم في الاسلام

III

اثر الصيام في المجتمع

حديثى فى هذا المساء سيكون قاصرا على ناحية واحدة ، وهى اثر الصوم فى المجتمع الاسلامى الحالى ، وبعبارة ثانية سأحاول فى هذا الحديث ان أجيب على سؤال طالما تردد فى خاطرى ، واعنى به : كم افاد المسلمون من الصوم ؟ وما هو أثر هذه الفريضة فى حياتهم الفعلية اليوم ؟

لقد أسلفت فى سابق حديثى بأن الشريعة الاسلامية تهدف فى جعل الصوم ركنا من أركان الدين ، ان تتخذ منه وسيلةً فعالة فى تهذيب النفوس ، وتطهير الارواح ، والعمل بذلك ـ ما امكن العمل ـ لانشاء الانسان الفاضل ـ المسيطر على هواه ، المالك لزمام نفسه ، الراعى لحدود الله ـ على هذه الارض انشاءً . وهى تريد ان تجعل من كل مسلم ، ومن كل مسلمةٍ انسانا فاضلا ، يحسن الى نفسه ، فيطهرها تطهيرا ، يجنبها الشرور والآثام ، ويحسن الى أبويه فيرعى حقوقهما ، ويحسن الى زوجه وأولاده وذويه والناس جميعا . وفروض الاسلام لم تفرض لذاتها مجردةً عن نتائجها وآثارها ، ومفعولها فى النواحى الاجتماعية ، والخلقية ،

---

(١) القى من دار الاذاعة العراقية فى ٢٤ رمضان ١٣٦٩ .

بالنسبة للفرد والمجموع . فالفروض المجردة الخيالية ، والطقوس الشكلية ، والرياضات المرهقـة ، لا وجود لها فى دين الفطرة . والاسـلام ـ كما تبين لنا من قبـل ـ ينكر تعذيب النفس ، كل النكران ، وهو لا يعرف فروضا واحكاما لا حكمة فيها ، فرضت على الناس لمجرد التكليف والتعجيز ؛ فلـكل فريضة من فرائض الاسـلام حكمة ، ولـكل أمر من أوامر الشـرع ونواهيـه غاية ، ولـكل عمل من أعمال الفرد أجل ؛ فلم يخلق الله عباده عبثا ولن يتركهم سدى ...

فما هو اذاً اثر الصوم الاجتماعى ، وما مدى ما تحقق من غاياته بين المسلمين ؟

فاما اثر الصوم الاجتماعى فعظيم جـداً ، واحسب ان هـذا الموضوع قد اشبع بحثا ، وصار من عداد البديهيات التى لا تحتاج الى البرهان . ولـكن أثر الصوم كان لاشـك عظيمـا يوم كان الاسلام اسلاماً ، والمسلمون مسلمين حقا ، يوم كان الناس جميعا يعرفون رمضان حق المعرفة ، ويرعون كل الرعاية ، ويتمسكون به تمام التمسك ، غير مكتفين بمظاهره الخارجية أو ببعضها ، ويوم كان الاسـلام « كلاً » لا يعرف التجزأة والتبعيض ، يوم كان الاسـلام كلاً يسيطر « بكليته » تلك على حيـاة المسلمين العـامة والخاصة على حدٍ سواء ؛ فهو دستورهم الاعلى الذى ينتظم اجل شئونهم السياسية ، وهو قانونهم الخـاص الذى يتوغل فى أدق

جزئيات حياتهم الخصوصية ، وهو ناموسهم الخلقى ، ونظامهم الاجتماعى الذى يتعاملون حسب قواعده ، ويستنيرون بهديه •
ولا يزال رمضان ، بمعناه الصحيح هذا ، وبجلاله الكلى هذا ، يرن الى اليوم فى آذان بعض الغربيين الذين عرفوا شيئاً عن الاسلام ، وادركوا شيئاً من حياة المسلمين وتأريخهم • ولقد كان رجال الغرب وساسته ، الى زمان قريب ، يخشون المسلمين اشد ما يخشونهم فى مثل هذا الشهر ، وذلك لانهم يعلمون بأن الحركات الكبرى ، والثورات التحررية ، ومقاومة الظلم والاستعمار حدث معظمها فى شهر الصوم ؛ أى فى الشهر الذى تتيقظ فيه روحانية الامة ، وترتفع عن افقها الارضى ؛ افق المعدة والغرائز والشهوات •••

ذلك هو مفعول الصوم فيما مضى ، فما هو اثره اليوم ، هل للصيام من اثر فعال فى مجتمعنا الذى نعيش فيه ، وهل يستفيد المسلمون فى هذا القطر مثلا من هذه الفريضة المباركة كما كان يجب عليهم ان يستفيدوا ؟؟

وحريٌ بنا قبل الاجابة على هذا السؤال ان ننظر الى حال المسلمين اليوم كما هى ، اذ من العبث تركُ هذه الناحية الواقعية الملموسة والبحث عن الماضى القريب أو البعيد • علينا ان نتحرى الواقع كما هو وان كان مؤلماً ، وليس يجدينا فى هذا الصدد ان نبحث عما كان ، أو عما كان يجب ان يكون •• وهنا يقف المرء

مبهوتاً ، ويأخـذه العجب العجاب حينما يبصر المسـلمين وهم لم يحصلوا على شيء ذى بال من تلـكم الفروض الرفيعة ، والقواعد الدقيقة ، وحينما يراهم لم تتشذب طباعهم ، ولم ترض أخلاقهم ، ولم ترتفع مداركهم ، على الرغم من وسائل التهذيب والاصـلاح العديدة الموجودة فى شريعتهم •

ولست استطيع فى موقفى هذا معالجة هذا الامر من جميع أطرافه ، ولا أقدر على تبيان كافة العلل والاسباب التى تضافرت فأدت الى هذه النتيجة المؤلمة ؛ واعنى بها عدم استفادة المسلمين من فروض الاسلام واحكامه ، وبالنتيجة حصول هوة عميقة ، وتباين كلي ، بين الاسلام من حيث هو دين ومبـادىء مجردة ، وبين المسـلمين من حيث هم اناس يعيشـون على سطح هـذه الـكرة الارضية •

والادعى للاسف ان هذا التبأين العظيم بين الاسلام والمسلمين جلي" حتى بالنسـبة لاولئك النفر من المسـلمين الذين يسمون بالمتدينين • اذ من المشاهد ان كثيرا من هؤلاء لا يكاد المرء يبصر أى اثر من آثار الاسلام الحقيقية فى اعمالهم واقوالهم ، وسلوكهم ، وقد بقيت الفروض الدينية عندهم طقوسا شكلية مجردة فلم تخالط روح الاسلام دماءهم ، ولم تمتزج تعاليم محمد بأفعالهم وأقوالهم •

فما أكثر الذين يواضبون على اداء الصلوات فى المساجد فى أوقاتها المفروضة ولـكنهم لا يرون بأسا بأن ينهروا بغلظة بادية من

بجوارهم فى صفوف الصلاة ، وما أكثر الذين يواضبون على اداء الصلوات فى مسجد واحد ولـكنهم لا يفكرون ، ولا يعتقدون بان من واجبهم ان يسألوا يوما عن حال جار مريض من جيرانهم اقعده المرض عن حضور الجماعة ، أو يعينوا فقيرا من معارفهم منعته الفاقة من حضور المسجد ، ولا يخطر ببال احد من هؤلاء بان فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد انما جاء من امثال هذه العلل لان التوادد والتراحم مفروضان على المسلمين جميعا . وفى الجماعة مجال لاظهار هذا التوادد والتراحم . ومن منا لم يشاهد المصلين الذين لا يكادون يخلصون من التسليمة الاخيرة حتى يشرعوا بنهم ظاهر فى لغو الحديث وباطله ، وقد لا يتردد بعضهم من سب أول من يصادفه فى باب المسجد ابذأ سب لاتفه الاسباب ، أو قد يعتدى على طفل صغير وقف يبصر المصلين ببراءة فى باب المسجد . وما أكثر الذين يرددون « الله اكبر » فى صلاتهم مراراً وتكراراً ثم لا يلبث احدهم حينما يبصر شرطيا حتى يأخـذ بالتملق اليه لغير ما سبب سـوى استكانة نفسه ، وهوان ذاته ، وهو يكاد يذوب تواضعا متكلفا حينما يبصر موظفـا كبيرا ووزيرا أو أى احـدٍ من هؤلاء الذين يسمونهم أصحاب الجاه والثراء .

فلو اشرقت شـمس الاسـلام الوهـاجة فى نفوس امثـال هـؤلاء ، ولو ادركـوا ما فى « الله اكبـر » من معـان ، وما فى ترديدها فى الصـلاة من حكمـة ، لاحتقـروا بالحق الاباطـرة

بتيجانهم ، والملوك بعروشهم ، والاقيال بممتلكاتهم ، ولما طأطأوا رءوسهم فى هذه الدنيا لمخلوق ، وكيف يكون ذلك وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ... وما دمنا فى حديث الصوم وحكمته فكم من الصائمين صائمون حقا ؟ كم هم الذين يدركون معنى الصوم الشرعى ويطبقونه ؟ أفلا يزعم كثير من هؤلاء المسكين عن الطعام والشراب بأن لهم بامساكهم المجرد هذا دالةً على الله وحقاً على الناس جميعاً . وكأن امثال هؤلاء الناس لم يقرأوا كتاب الله ولم يسمعوا سنة نبيه . ألم يقل الله تعالى عن الهدى . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » فليس لله عز شأنه أى مأرب فى ان يجوع فلان أو يعطش فلان ولكنه يريد ان يرفع الرجس عن عباده ، ويطهرهم بتعاليمه ، فيراهم يعيشون فى هذا العالم عيشة راضية ، يبغون الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، ويحسنون كما احسن الله اليهم . فقد ابصرهم بحدوده ، وهداهم سبل الخير والرشاد ، واعطاهم عقولاً قادرة على ان تختار طريق البر والفلاح ، وطلب اليهم ان يرعوا حقوق الله ، وحقوقهم ، وحقوق الناس جميعا ، وتلك هى « التقوى ، باجل واوسع معانيها ... فلا صوم لمن لم تزك نفسه بالصوم ، فيرق للضعيف ، ويعين المحتاج ، ويكف بصره ولسانه وأذنه وجوارحه كافة عن كل سوء ، ولا صلاة لمن لا تأمره صلاته بمعروف ولا تنهاه عن منكر ، فيتفقد جاره ، ويعود المريض ، ويرفع

السوء عن الناس ، ويميط الاذى عن الطريق . وليس من الصوم فى شيء ما يفعله فلان الذى يقضى معظم ليله فى القيل والقال أو فى لعب النرد والميسر ، ثم يصبح غضبان أسفا ينهر زوجه ، ويشتم خادمه ، ويضرب ابنه ، ثم يذهب الى عمله متثاقلا فلا يكاد ينجز أى شيء ، بل لعله يشتم هذا ، ويعتدى على هذا ، ثم يقضى ظهيرته فى نوم عميق لا يكاد يستفيق منه الا عندما تقترب الشمس من الغروب ، وعندئذ يستيقظ وتستيقظ معه شهواته العارمة فتراه يأمر بطبخ هذا الطعام ، وتحضير هذا الشراب ، ثم لا يكاد المؤذن يعلن انتهاء النهار وولوج الليـل ، حتى يأخذ بالتهام الطعـام واحتسـاء الشراب حتى يثقل جوفه الفارغ فلا يكاد يطيق الحراك ، وعندئذ ينسحب الى نواديه وحفلاته ليتم ليلته كسابقتها ... وليس من الصوم فى شيء ما تفعله فلانه التى تقضى ليلتها متنقلة فى مجالس سهرها مع صويحباتها ومجتمعاتها تنهش لحم هذه ، وتعض لحم تلك ، ثم تقعد فى ضحى النهار مثقلة متكاسلة لا تكاد تعمل شيئا فى بيتها ، فتهمل أولادها ، وتشتط على خادمتها ، وتقضى عصر يومها فى التجول فى الاسواق فى تبرج جاهر تشترى من هذا ومن هذا ما تحتاجه وما لا تحتاجه فى اسراف وتبذير ظاهرين ، وبعد افطارها فى المساء تعاود حياتها الاولى . وفلان وفلانة ، هذان مثالان من عشرات بل مئات ، فلهم اندادهم واحزابهم كثيرون فى مجتمعنا ، وليس هؤلاء من الصوم فى شيء وليس لهم منه الا

الجوع والعطش . وافضل من هؤلاء من افطر بجارحتى الاكل والشرب وصام بجوارحه الاخرى فما ضيع امثال هؤلاء أكثر مما حفظوا ...

وعلى المسلمين اذا أرادوا ان ينتفعوا بالصوم ، ويحظوا بثوابه ، ان يرعوا شروطه واحكامه ، وان يتأدبوا بآدابه وسننه ولنا أسوة حسنة في رسول الله ، فقد كان عليه السلام جوادا ، وكان اجود ما يكون فى رمضان ، ولذا دعى للانفاق خاصة فى هذا الشهر ، واستن زكاة الفطر فى نهايته ، وكان احلم الناس ؛ وكان احلم ما يكون فى رمضان ، ولذا اوصانا بان لا نخاصم ولا نجادل وان نجيب من يشتمنا أو يعتدى علينا « بأنى صائم » . وكان ساميا رقيقا فى كل أقواله وافعاله ، ولكنه كان اسمى ما يكون فى مثل هذا الشهر ، وبخاصة فى عشره الأواخر .

هذا هو الصوم الشرعى ، وهذه حكمته ، وتلك سنته ، التى سار عليها سلفنا الصالح فبلغوا بالاسلام - والصوم ركن من أركانه - الغاية التى لا غاية بعدها ..

(١٥)

حكمة الصيام في الاسلام

IV

الصوم مظهر الشكر [١]

أود أن أتحدث الى حضراتكم فى نهاية هذه السلسلة من احاديثى ، فى مختتم هذا الشهر ، عن ناحية من نواحى حكم الصوم احسب انها لم تحظ بما هى جديرة به من التفات الباحثين من قبل ، وهذه الناحية هى كون الصوم مظهراً علمياً من مظاهر الشكر والامتنان لله تعالى على ما انعم به على المسلمين فى هذا الشهر ، من نزول القرآن الكريم ...

ومن واجب المسلمين عامة والعرب خاصة ان يصوموا هذا الشهر آيةً للشكر على هذه النعمة الكبرى . اذ بالقرآن رفعهم الله من وهاد الجهالة ، وضلال الجاهلية ، الى ذرى المعرفة ، ومحجة الحق ، وبه أنيرت لهم سبل العدل والخير والعز والرشاد ... فالقرآن بالاضافة الى كونه كتاب هداية ورحمة للناس جميعا ، فانه كتاب رفع الله به ذكر العرب وأعز شأنهم « لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون » . وبه رفع شأن لغة العرب « انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . « وكذلك انزلناه حكما عربيا » . وبه صان هذه اللغة الكريمة خلال القرون والعصور

---

(١) القى من دار الاذاعة العراقية فى ٢٩ رمضان ١٣٦٩ .

العديدة ، ولولاه لاندرست اللغة العربية كما اندرست من قبل لغات كثير من أمم العالم ذات الحضارات الكبرى . فقد تعرض العرب فى تاريخهم المديد الى شتى أنواع المظالم والاضطهاد ، ومرت عليهم النكبات القاصمة ، وعصفت بهم العواصف الهوج . ولكن لغتهم بفضل القرآن ، قويت على الحياة أبداً ، وحافظت على مقوماتها الاساسية ، واستطاع العرب بذلك ان يحتفظوا بأجل مميزاتهم ، وأعز تراثهم .

ولم يكن فضل القرآن قاصراً على حفظ لغة العرب فحسب ، بل انه كان عاملا قويا فى نشر لغتهم فى مختلف أنحاء المعمورة ؛ فالدين الاسلامى واللغة العربية يسيران جنبا الى جنب . ففى كل زاوية من زوايا هذه الارض الفسيحة يتردد فى آفاقها النشيد القدسى الخالد : « الله اكبر الله اكبر » وجدت لغة العرب لها سكنا ومنبتاً ؛ ففى جزز الفيلبين فى المحيط الهادى ، وفى سواحل فنلندة فى بحر البلطق ، وفى مجاهل افريقية وواحاتها الصحراوية ، ناهيك عن الاقطار الشاسعة فى آسيا وافريقية واوربا ...

أفليس من الحق اذن على العرب خاصةً ان يقوموا بشأن هذا الدين ، ويقدسوا هذه الذكرى العظيمة ، ذكرى نزول القرآن ، بأن يصوموا هذا الشهر الكريم الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ...

وقد ينكرُ عليَّ منكرٌ توجيهى الحديثَ هذه الوجهة ،

وتخصيصى العربَ دون سواهم من المسلمين ببعض حكم الصوم وغاياته ، وقد يحسبون ذلك تمييزاً بلا مميز ، وتخصيصاً من دون تحقق دواعى التخصيص ، وليس لى فى الرد على امثال هؤلاء الا ان احيلهم الى القرآن ذاته ليقرأوه ويتدبروه ، على ان يتحرروا عند قراءته من تلكم الصور المشوهة المغرضة التى صورت بها أقلام بعض مؤرخى الشعوبية ، العرب وتأريخهم وحضارتهم . فقد ذكر القرآن الكريم العرب فى أكثر من آية واحدة ، ووصفهم بأنهم الامة الوسط التى اختارها الله لتكون شهيدة على الناس ، وامتن عليهم بالقرآن ، واسترعى انتباههم الى ما نالوه به من ذكر كريم ، ومجد عظيم .

وليس من صدف الحادثات ان يوحى الله بالقرآن الى عربى هو فى الذؤابة من قريش ، وفى وسط عربى كان بالنسبة لعالم العرب يوم ذاك بمثابة المركز من الدائرة ، والقطب من الرحى ... وبعد فالعرب هم كما قال الفاروق عمر بن الخطاب « مادة الاسلام ، وهم دعاة هذا الدين وجنده ، بهم أعز الله الاسلام ، وبسيوفهم تحطمت معالم الشرك والضلال . ولا شك أن بصلاحهم يصلح المسلمون . ومن العبث ان يرجى للاسلام والمسلمين صلاحا قبل صلاح العرب ، ومن العبث أيضا ان يرجى للعرب صلاح عن غير طريق الاسلام ، اذ لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها . وحرى بالعرب ان يدركوا هذا الامر ، وأن يعرفوا قدر

انفسهم ، وان يعلموا بان لهم فى هذا الكون رسالة خالدة لم تزل قائمة الى يوم الناس هذا ، وان هذا العالم المائج المضطرب كالمرجل الذى يغلى ، والذى يوشك ان ينفجر فى كل حين ، بحاجة الى من يذكره برسالة الاسلام ، ودعوة القرآن ، تلك الرسالة التى تقف وسطا بين النظامين العالميين المتعارضين ؛ فهى لا تفرط افراط هذه ، ولا تفريط تفريط تلك ، تأخذ من كل شىء احسنه . وتوحد بين مقتضيات الجسم ومتطلبات الروح أبدع وانسق توحيد ، وتعنى بالفقير والغنى ، والكبير والصغير ، والعالم والجاهل ، والامير والمأمور ، على حد سواء ...

وهى لا تقيم علاقات الافراد والجماعات على أساس صراع الطبقات ، وتباغض الشعوب واجناس ، وذحل الذين يقاسون من مركب النقص ؛ وهى كذلك لا تقيم تلك العلاقات على اسس الفردية المقيتة والانانية الشخصية ، وروح الغلب والاستئثار والاستعمار . انها تشيد معالم الحضارة على صروح متينة من التضامن الاجتماعى ، والتكافل الكلي ، وحب الخير الشامل ، وروح العدل والمساواة الحقيقية بين الناس جميعا .

ورسالة الاسلام ليست كمبادىء هؤلاء الذين يزعمون انهم حفظة المدنية المسيحية ودعاتها ، ومع ذلك لو اتيح للسيد المسيح ان يبعث حياً ليعش بينهم لكان مصيره - على حد ما قال الفيلسوف المعاصر برتراند روسل - ان يقضى حياته فى وحدة مريرة فى احدى

المعتقلات السياسية النائية باعتباره ـ فى زعمهم ـ من الاشخاص الخطرين على سلامة الدولة وكيانها ، وهى ليست كاولئك الذين ينكرون المسيح ودعوته ، ويزعمون ان الاديان جميعا افيون الشعوب اوجدتها مصالح الراسمالية والاقطاعية ، لتخدر الجماهير كى تنام عن المطالبة بحقوقها ...

وليست مبادىء الاسلام كمبادىء هؤلاء الذين يتحدثون عن الحرية الفكرية ، والعدالة الاجتماعية ، ونصرة الشعوب الضعيفة وتحريرها ، والحرية الفكرية التى يتبجحون بها ليست فى واقع الحال الاحرية أصحاب الثراء والنفوذ من أصحاب شركات النشر والطباعة والاذاعة واخراج الاقلام ـ وهى فى غالبيتها شركات ومؤسسات خاضعة الى حد كبير لنفوذ الصهيونية واليهودية العالمية ـ لتوجيه العالم الى حيثما يريدون ، والحيلولة بينهم وبين الحق الصراح حتى صار من العسير جدا افهام الشعوب والافراد أبسط الحقائق . واذا ما اتيح لصوت الحق ان يصل الى آذان بعض الناس فانهم اعجز من ان يجدوا وسيلة فعالة لاحقاقه .

واما العدالة الاجتماعية التى ملأوا الارض ضجيجا بالدعوة اليها فلا تعدو اصلاحات جزئية أخذت تقوم بها بعض الحكومات لرفع الحيف عن بعض أفراد شعوبها وتحقيق شيء من المساواة بينهم ، والدافع الاساسى فى تلك الاصلاحات ليس حب الخير ، ولا نزوعا للعدل المطلق ، بل هو نتيجة ضغط الطبقات العاملة ،

وخشية التيار الخارجي الجارف . واما نصرة الشعوب المظلومة وتحريرها فيكفي ان نعيد الى أذهاننا بعض ما عملته هولندة فى اندنوسيا الحرة ، ويكفينا أيضا ان نتذكر بعض ما عملته فرنسا - الحرية كما يلقبونها - وما تزال لقملة فى تونسنا الخضراء المجاهدة ... ولست أدرى هل نسينا بعد فلسطيننا العزيزة وما لاقته من هيئة الامم المتحدة والدول الكبرى ... ؟

اما اولئك الذين يتحدثون عن تحرير الطبقات الكادحة والشعوب المستعمرة فلا أدرى أى تحرير هذا الذى يقصدون ، أهو الذى اجاز لهم الاعتداء على فلندة الوديعة ، أم الذى اباح لهم تقسيم بولندة وضم اخصب قسم من أراضيها الى روسيا وتعويضها بضم قسم من ألمانيا اليها ، وبذر بذور الشقاق من جديد بين البولونيين والالمان ، ام انه ذلك الذى يبرر لهم هذه الحملة الظالمة ضد يو كوسلافيا - وهى الاخرى دولة شيوعية - ولكنها لا تريد ان تخضع خضوعا تاما لارادة الكرملين .. ؟

ان العالم اليوم تنازعه قوتان متعارضتان ، والخلاف الاساسى بينهما لا يتصل بالمبادىء والمثل ، قدر اتصاله بالمصالح والاغراض ، والتنافس الحقيقى بينهما لا يتعلق بالخلاف بين الديمقراطية الغربية ، والشيوعية الماركسية وانما التنافس الحقيقى هو على النفوذ السياسى ، والاسواق التجارية ، والمنافع الاقتصادية . والسيطرة على المواد الطبيعية والمعدنية . وهما اذا اتفقت مصالحهما يتعاونان ،

ويتحالفان ، كما تعاونا فعلا وتحالفا ، فلم تمنع المدنية المسيحية دول الغرب من التعاون مع روسيا اللا دينية ، كما لم تمنع الشيوعية العالمية الروس من التعاون مع الدول العنصرية والرأسمالية كألمانيا ...

علينا ان ندرك هذه الحقيقة ، وان لا نخدع انفسنا فنتوهم وجود تعارض أساسى ، وخلاف جوهرى بين تلك النظم . وان كان هناك ثمة خلاف أساسى فهو بين المسلمين الذين يؤمنون بالمثل الرفيعة ، وقواعد العدل المطلق ، والاوربيين الذين قد يتحدثون عن تلك المثل والقواعد احيانا ولكنهم لا يعملون بها عندما تتعارض مع مصالحهم المادية ...

على العرب ، وعلى المسلمين جميعا ان لا ينخدعوا بأمانى هؤلاء ولا بدعاية اولئك ، وعلينا ان نعتقد بان لنا من ديننا وتراثنا القومى وسائل فى الاصلاح عظيمة . ولو اتيح لنا ان نجربها لاحلنا هذه الارض غير الارض ، وهذا المجتمع غير المجتمع . ولكن الاستعمار الناشب أظفاره بين ظهرانينا ، هو الذى حال بيننا وبين ان نجرب تلك الوسائل ، وتحقق تلك المثل . وانا لفى غنى تامٍ عن استيراد تلكم المبادىء الغربية التى تقوم على فلسفة مادية ضيقة ، وافكار لا يمكن ان تستقر عليها حضارة فاضلة أو نظام اجتماعى متين ...

ألا واننا لنقف اليوم فى مفترق الطريق فاما ان نواصل السير فى ذيل قافلة الغرب ، فتقوى مع الزمن فينا النزعة المادية ، وتضعف

القيم الروحية ، ونفقد كثيرا من خصائصنا القديمة ، وأريحيتنا الفطرية ، ويبقى كياننا - كما هو الآن - هزيلا لا طابع له ، مستضعفا لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره ، هذا مضافا الى ما جرت علينا تلكم التبعية فيما مضى من الذل والاستكانة والهوان والاندحار ... وأما ان يجرفنا التيار الآخر ، كما جرف شعوبا وامما من قبلنا ، وهو تيار قوى وله دعاة منظمون ومنبثون هنا وهناك ، وقد هيأ المستعمرون التربة له ، وعبدوا الطريق بما اورثوا البلاد من فاقة ، وجهل ، وبما اصطنعوا من طبقات أجيرة كانت فى معظم الاحيان عونا للاجنبى على شعوبهم ... ولكننا اذا ما جرفنا ذلكم التيار فلن نصبح - على أحسن الاحتمالات - الا كالقطعان التى قد يتاح لها ان ترعى الحقول الخصبة ، ولكن لن يسمح لنا ان نغرد كما تغرد أسراب البلابل فى جنائنها ناهيك عما بين فلسفتها ومبادئها وفلسفتنا ومبادئنا من تباين كلى ، وما بينها وبين عقيدتنا الاسلامية التى يجب ان لا نفرط بحال من الاحوال بها ، من تعارض أساسى .

فليس للعرب والمسلمين والحالة هذه الا ان يختاروا طريقا واحدا ، لا هو طويق هؤلاء ولا هو طريق أولئك ، ليس لهم الا طريق واحد هو طريقهم القديم الواضح المعالم والذى يوصلهم وحده الى محجة السلام والعز والكرامة .

عليهم ان يعلموا ان لا نجاة لهم الا بالاسلام وتعاليمه ، وهم

بذلك لا ينقذون انفسهم مما هم فيه فحسب بل قمناء بان يخلصوا العالم كله من ورطته ...

على العرب والمسلمين ان يدركوا هذه الرسالة ، ويعملوا على اعادة سلطانها الحقيقى الى هذا الكون من جديد ... وهذه الكرة الارضية التى توشك ان تستعر وتحول رماداً ، تهيب بهم وتنادى : هل من مخرج من هذا المأزق الحرج ، وهل من سبيل غير سبيل هؤلاء أو اولئك ... هل من نور جديد يخرج العالم من كبوته ، ويهديه سبل الطمأنينة والسلام ، بعد ان اعلنت مدنية أوربا - شرقيها وغربيها - افلاسها التام ؟؟ ثلاثة[1] حروب طاحته فى نحو ثلث قرن يذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر ، ومن ورائهم ملايين لا تحصى من الثكالى والمكلومين ، والمشوهين والمعذبين ومحطمى الاعصاب ثم لا يجد سكان هذا العالم بذلك عبرة كافية !!

ألا وأن داء العالم الاساسى . وبليته الكبرى هى فقدان الوازع الوجدانى ، وتحطم المثل الروحية ، وغلبة المصالح أو الشهوات المادية ، وليس فى هذا الكون علاج يربى وجدان الفرد ويتمنى ضمير الجماعة ، ويرفع من شأنه المثل المعنوية ، ويحد من شهوات الافراد كالاسلام .

---

(١) الحرب الثالثة هى حرب كورية وكانت مستعرة يوم القى هذا الحديث .

ألا وليس فى العالم دستور أدق وأصلح واجدى من دستور بعض ما فيه :

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

(١٦)

الاسلام والقومية العربية[1]

تمهيـــد :

يجدر بى ، فى مستهل هذا البحث ، أن أوضح المقصود من
عنوان المحاضرة ، وأحدده بعض التحديد ؛ لان ما فيه من اطلاق

(*) رأيت من المفيد ان اضيف الى موضوعات هذا الكتاب الرسالة التى كان نادى البعث العربى قد نشرها سنة ١٩٥٢ والمتعلقة بموضوع محاضرة عامة كنت قد القيتها فيه بعنوان : « الاسلام والقومية العربية » وذلك لعلاقتها بمواضيع هذا الكتاب من جهة ، ونفاد النسخ المطبوعة منها وكثرة الطلبات اليها من جهة اخرى .

وكان هذا البحث قد ترجم الى الانكليزية ونشر فى العدد ٣ ، ٤ ، من المجلد الثالث من مجلة عالم الاسلام "The World of Islam" التى تصدرها هيئة المستشرقين باللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية فى مدينة ليدن فى هولندة وذلك سنة ١٩٥٤ مع مقدمة ضافية جاء فيها : « ان اهمية هذه الرسالة هى فى طريقة عرضها للموضوع . ان المؤلف واثق بنفسه متحرر من اللغة الاعتذارية ، ثم ان بحثة لم يعرض من قبل بهذا الوضوح ، وهذه المنطقية ، وهذا الحد من الكمال . انه يظهر الخصائص الاصلية للحركة ؛ وهى الاعتزاز بماضى العرب « قبل الاسلام وبعده » ، وتأكيد تام على عدم انفصام عرى الاسلام عن العروبة » .

واحسب ان من المفيد الابقاء على الكلمة التى كنت قد جعلتها مقدمة حين نشر هذا الموضوع فى كراس صغير .

المقـدمة :

يسرنى ان أنشر نص المحاضرة التى كنت قد القيتها فى نادى البعث العربى بتأريخ ١٧ـ١ـ١٩٥٢ ، استجابة لطلبات فريق من اعضاء النادى ، وتحقيقا لرغبات آخرين غيرهم ممن استمعوا لتلك المحاضرة ، أو سمعوا عنهـا .

وأحسب أن من المفيد أن أعرض هنا لبعض النقاط لتكون بمثابة التمهيد للافكار التى عرضتها فى صلب المحاضرة ، ولاكشف بها عن العوامل الخاصة التى حملتنى على اختيار هذا الموضوع بالذات « الاسلام والقومية العربية » ليكون الحلقة الخامسة من سلسلة المحاضرات التى أعدها النادى لموسمه الثقافى فى هذا العام .

ولقد كنت أشعر ، منذ زمن طويل ، بان عددا لا يستهان به من الناشئة ، من الشبان والشابات ، على تباين مستوياتهم الثقافية ، يجدون صعوبة عقلية كبيرة فى التوفيق بين «الفكرة القومية» و «العقيدة الدينية» . =

وشمول قد يوهم بعض السامعين بأنى أقصد أن أبحث فى « المبادىء الاسلامية » ، و « الفكرة القومية » ، بحثا عميقا مفصلا . وهذا الامر ، على أهميته ، لا يصلح ، بطبيعة الحال ، للمعالجة فى محاضرة واحدة ، وحري أن يكون موضوع دراسة خاصة ؛ وغاية ما أرمى اليه ، فى هذا المساء ، هو تحديد علاقة القومية العربية ،

= وقد وصل الحال ببعضهم الى حد العقدة المستعصية التى تتطلب الحل السريع. وكان من نتائج ذلك أن نجد فريقا منهم ــ وهم الذين تتغلب فيهم النزعة القومية ــ قد انصرفوا عن الدين انصرافا تاما ، بينما نجد الفريق الآخر ــ وهم الذين تغلبت فيهم الروح الدينية ــ قد تنكروا للقومية كل التنكر . ولولا التوهم ، وسوء الفهم ، واضطراب التفكير ، لما وجدت تلك الصعوبة العقلية بحال من الاحوال ، ولما صار من اللازم أن يكون الايمان « بالقومية » مدعاة للكفر « بالدين » ولا الايمان بالدين مبررا لنكران القومية .

ولقد كنت ، شخصيا ، معرضا ، طوال حياتى المدركة ، لاسئلة كثيرة من هؤلاء وأولئك ، بل كنت فى أحيان عديدة موضوع انتقاد قاس من هذا الفريق أو من ذاك ؛ فبعض القوميين ينكر عليّ « شعورى الاسلامى » ، وبعض المسلمين ينكر عليّ « احساسى القومى » . ولست أغالى اذ اقلت باننى كنت ــ وربما لم أزل ــ لغزا مغلقا يتطلب الحل فى نظر كثير من هؤلاء واولئك . وقد كنت معرضا لاسئلة عديدة ، وملاحظات شتى وأنا طالب أتم دراستى فى انكلتره ، وأعمل فى القضايا القومية بجد فى « الجمعية العربية » التى كونتها مع فريق من الاخوان فى لندن ، وأساهم بنشاط فى الجمعية الاسلامية التى كان معظم أعضائها من الهنود المسلمين . وربما كنت اكثر تعرضا لامثال تلك الملاحظات والانتقادات بعد عودتى الى العراق سنة ١٩٣٩ ، وانا أشتغل فى التعليم العالى ، وأنشط للعمل القومى فى جمعية الجوال العربى ــ تلك الجمعية التى أغلقتها الحكومة كما أغلقت نادى المثنى بعد حوادث سنة ١٩٤١ ــ وفى الوقت نفسه كنت اساهم فى المسائل الدينية والقى الخطب والمحاضرات وخاصة فى حفلات المولد النبوى . ولقد ازدادت الملاحظات حولى ، والانتقادات التى توجه لي ، فى هذا الشأن فى الفترة التى قضيتها فى معتقلات الفاو والعمارة ونقرة السلمان حيث كنت أجدّ مع لفيف من الاخوان الذين يشاركوننى الرأى فى العمل بالدعوة القومية ، مع التمسك التام بأحكام الاسلام وآدابه . ولم أزل أتذكر بوضوح المناقشات الطويلة ، والمجادلات الصاخبة ، بل الانتقادات العديدة العنيفة التى تعرضت لها من كثير من زملائنا المعتقلين الذين كانوا يجدون ، ــ هم بدورهم ــ صعوبة فى التوفيق بين الدعوة القومية ، والشعور الاسلامى .

وانى اليوم ، وبعد مضى نحو من عشر سنوات ، لاشعر بغبطة عظيمة =

من حيث هى « عقيدة وحركة » بالشريعة الاسلامية من حيث هى « دين وحضارة وفلسفة حياة » وبعبارة أخرى ، سيدور بحثى حول الاجابة على سؤال احسب انه طالما جال فى اذهان كثير من مثقفى العرب ، وكثيرا ما اوقعهم التفكير فيه بارتباكات ، وجعلهم فى بحران ، وهذا السؤال هو : « هل يمكن ان يكون الفرد منا قوميا

= حينما أقارن بين ما يكتب ويعلن بعض من اولئك الزملاء اليوم ، وما كانوا يعتقدونه ويعلنونه بالامس • فقد تغير بعضهم ، فى هــذه الناحية ، تغيرا كليا ، ولم يعودوا – كما كانوا من قبل – ليتوهموا بأن القومية العربية الحق تعارض الروح الاسلامية الصحيحة ، كما كانوا من قبل يزعمون •••

وكنت أعتقـد – ولم أزل – بان القومية العربيـة الخالية من الفكرة الاسلامية هى بمثابة الجسم الخالى من الروح ، والشعور الاسلامى المجرد من الشعور القومى – بالمعنى الذى سأوضحه – يستحيل الى افكار مجردة لا تتصل كثيرا بالحياة العامة التى نحياها كأفراد وجماعات •

وعنـدى أنه باسـتطاعة المرء أن يوفق بين القوميـة العربية والدين الاسلامى ، كما يؤلف الموسيقى الماهر بين الالحان العذبة المتنوعة ليخرج من مجموع ذلك نغما رائعا قويا موحدا •

لعلى أسهبت فى ذكر شؤون خاصـة كان الاليق بى الا أتطرق اليها ، ولـكنى فعلت ذلك لاثبت بأن الموضوع الذى عالجته فى هذه المحاضرة لم يكن موضوعا مرتجلا ، وان الافكار التى عرضـتها وناقشتها ليست أفكارا آنيـة متحصلة من دراسـات طارئة أو ظروف خاصة ؛ انهـا أفـكار كانت تخامرنى ، وتجول فى مخيلتى ، وتستقر فى ذهنى ، منذ سنوات عديدة • وكنت أشعر – ولم أزل – بان اعلانها ، والافصاح عنها ، ليس نافعا فحسب بل ضروريا لتبديد بعض الاوهام الشائعة ، وحل بعض العقد التى يجب ان يكون من أول واجبات المعنيين بالحياة العامة العمل على تبديدها وحلها •

هذا وانى لاعلم سلفا بأن افكارى هــذه ستثير فريقين متعارضين ، متطرفين ، من الناس ؛ وسيرمينى بسـببها فريق « بالجمود » وفريق آخر « بالخروج » عن المفاهيم الاسلامية كما توارثوها • وكنت أعلم سلفا أيضا بان بعض القوميين الذين لا يزالون – فى عقولهــم البــاطنة ، وان كمت أفواههم – لا يقيمون للقومية وزنا الا على أساس عنصرى ، ومبادىء علمانية ، سينكرون عليّ هذا الاتجاه فى التقريب بين القومية العربية والاسلام ، كما اننى كنت أعلم بأن بعض المتزمتين والتقليديين من المسلمين سينكرون هذا التفكير الحديث الذى يحبب الاسلام الى القوميين ، ويدلل على قيـام أوثق الصلات بين « الاسلام » من حيث هو «دين وفلسفة حياة» والقومية العربية =

مخلصا لقوميته ، ومسلما صادقا فى عقيدته فى آن واحد » ؟ وهل هناك تعارض أساسى بين القومية العربية بمعناها العلمى الدقيق ، والشعور الاسلامى الصحيح ؟ وهل فى الانتساب الى أحدهما تبرّؤ من الآخر ؟ ..

واسمحوا لى أن أبسط السؤال بعض التبسيط فأقول : هل فى قولنا هـذا قومى مسلم ، أو هـذا مسلم قومى ، تعارض أو تضاد ، كقولنا هذا ملحد متدين ، أو هذا متدين ملحد ، أو جمع بين متناقضات ، كقولنا هذا شيوعي فاشي ، أو هذا ديموقراطى

= من حيث هى « عقيدة وحركة » • وحرى بى أن أعلن هنا بكل صراحة بأننى حينما أصدر عن رأى ، وأتمسك بعقيدة ، لاأعنى كثيرا باتهـام المتهمين ، وغضب الغاضبين ، وازورار المزورين ؛ والمهم عنـدى أن أكون مخلصا فى عقيدتى ، صادقا فى شعورى ، متحريا الحق فيما أقول •

ولست بطبيعة الحال أنكر احتمال الخطأ فيما أقول وأرى ، ولـكننى لن أرجع عن رأى ، ولن أتهيب من اعلان فكرة ، خوفا من غضب الغاضبين ، أو تحاشيا من انتقاد المنتقدين • ولن أرجع عن رأى ـ حينما أرجع ـ الا بعد أن تقوم الحجة على بطـلانه ، وتؤكد الوقائع الثابتة خلافه • ولكنى أشعر بان البراهين تتضافر ، والوقائع تزيدني في كل يوم دليلا ، على صدق ما أقول وأدعى فى هذا الشأن •

وجدير بى أيضا ان أشير هنا بأن الوقت المحدد للمحاضرة لم يكن كافيا لعرض هذه القضية المهمة عرضا مستفيضا ، وهذا مما اضطرنى الى بعض الايجاز ،والاكتفاء أحيانا بالاشارة العابرة ، فى مواقع قد يكون من المستحسن الاسهاب فيها • ومع ذلك فقد أبقيت المحاضرة على نصهـا دون زيادة أو نقصان ، وأرجو أن أوفق يوما ما لان أعود الى هذا الموضوع الحيوى فأوليه ما يستحق من البحث الشامل ، والاستقصاء الدقيق •

وقد يكون من الحق عليّ أن أعلن بكل صراحة واخلاص ، بأنى شخصيا لم اجد قط صعوبة جدية فى التوفيق بين شعورى القومى ، الذى أعتز به ، وأعمل بوحى منه ، وعقيدتى الدينية التى أتمسك بها ، واحرص عليها ، وان كلا منهما كان يزيد الآخر قوة وعمقا فى نفسى • وأحسب ان كل فرد منا قادر على الوصول الى ما وصلت اليه ، متي أدرك قوميته ، وعرف دينه ، على وجهيهما الصحيحين •

دكتاتورى ؟ أو اذا ما أردنا ان نستعمل اصطلاحات القدامى ، هل يكون فى قولنا هذا قومى مسلم تنافر كقولنا هذا جبرى قدرى ، وهذا شيعى خارجى •

اسباب التعارض :

وعندى أن التعارض الظاهر بين الاسلام والقومية العربية ، ذلك التعارض الذى لم يزل قائما فى أذهان كثير من الناس الى هذا اليوم ، يرجع بالدرجة الاولى الى سوء فهم ، وسوء تصوير ، وسوء تفسير • أصاب كلا من « الاسلام » و « القومية العربية » على حد سواء •

١ ـ سوء الفهم •

أما سوء الفهم للاسلام فمتأت من المعنى الخاطىء « للدين » ، وتأثرنا ـ نتيجة للاستعمار الفكرى الذى لا تزال طائفة منا ترزح تحت اعبائه ـ بالمفاهيم الغربية التى ترسم للدين مجالا ضيقا لا يعدو حدود التعبد ، والطقوس الخاصة ، والمعتقدات الروحية ، التى يتقيد بها الانسان فى سلوكه ، وفى تقدير علاقته بربه ، وأخيه الانسان ، من حيث هو فرد مستقل عن المجتمع • وهذا المعنى الضيق للدين لا يقره الاسلام ، وهو يعارض طبيعته وغايته كل المعارضة •

وكثير من الناس لا يزالون يتصورون أن الدين الاسلامى هو كالديانة المسيحية أو البوذية ، معتقدات تعبدية ، ومناسك

وآداب سلوك ولا شيء غير ذلك . وفى الحق ان الاسلام ، بالمعنى الدقيق للاسلام ، نظام اجتماعى ، وفلسفة حياتية ، وقواعد اقتصادية ، ونظام للحكم ، بالاضافة الى كونه عقيدة دينية ، بالمعنى الغربى الضيق . وقد ادرك بعض مفكرى الغرب الفرق الشاسع بين طبيعة الاسلام الشاملة ، وطبيعة المسيحية المحدودة ، وذلك لان المسيحية كانت تعنى بالفرد وطهارته الروحية من حيث هو فرد ، أكثر من عنايتهما بالفرد من حيث هو جزء من المجموع ، وعلاقته بهذا الكل . وكان ذلك محتوما نظرا لاختلاف طبيعتى الدينين ، وظروفهما وعصر نزولهما ؛ اذ بينما كان السيد المسيح فردا من أفراد المجتمع الاسرائيلى الخاضع للدولة الرومانية ، المجرد عن أية صفة فعالة فى النظام السياسى القائم ، كان النبى محمد عليه السلام قائدا ، وحاكما ، ومدبرا للشؤون السياسية ، قدر ما كان مصلحا اجتماعيا ومرشدا دينيا .

ومن المفكرين الغربيين الذين ادركوا هذا الفرق بين الدينين الفيلسوف المعاصر « برتراند روسل » وأشار اليه فى كتابه القيم « التربيةوالنظامالاجتماعى Education and the Social Order » اذ اعتبر الاسلام دينا سياسيا ؛ أى دينا موجها للجماعة ، يتوغل فى حياة الفرد والمجموع توغلا كليا ، واعتبر المسيحية والبوذية ، من الناحية الاخرى ، ديانات « الافراد » ، أى ديانات غير سياسية . والذين لا يزالون ينظرون الى الدين الاسلامى ،

ويفهمونه فهما ضيقا ، وينتزعون معناه من المسيحية يخطئون خطأ فاضحا فى تقدير حقيقته ؛ فما دام الاسلام دينا سياسيا ، على حد ما يقول « روسل » ، فليس من الضرورى أن يتعارض مع القومية العربية الا اذا اختلفت اهدافها السياسية ، وهذا غير متصور كما سنرى بعد قليل .

وكما حدث سوء فهم للاسلام فقد أصاب القومية العربية سوء فهم أيضا ، ولعل مرجعه تصور بعض الناس بان القومية لا تقوم الا على دعوة عنصرية أو عصبية جنسية ، وانها بذلك قد تصبح معارضة لطبيعة الاسلام الشاملة . ولاشك بأن غلو بعض القوميين فى دعوتهم القومية ، كان من الاسباب المهمة التى اسهمت فى سوء الفهم هذا ، بل لاشك أيضا من أن بعض ما عمله قديما بعض حكام الامويين وولائهم فى اندفاعهم فى عصبيتهم القبلية ، ودعوتهم العنصرية تعارض مع طبيعة الاسلام . ولكن القومية العربية التى نؤمن بها ، وندعو اليها لا تقوم - كما نص على ذلك ميثاقنا القومى - على الدعوة العنصرية ، بل ترتكز على الروابط اللغوية ، والتأريخية ، والادبية ، والروحية ، والمصالح الاساسية فى الحياة . وبهذا المعنى فليس هناك تعارض بين القومية العربية والديانة الاسلامية من هذه الجهة أيضا .

وقد قام قسط لا يستهان به من سوء الفهم للقومية العربية وعلاقتها بالاسلام فى عقول كثيرة من الناشئة الذين عرفوا شيئا

عن تاريخ الغرب والنهضات القومية ، ولمسوا آثار التعارض بين الدين المسيحى ، وتلك النهضات القومية واضحا ، وكان ذلك طبيعيا بالنسبة للمجتمعات الغربية ؛ لان الكنيسة ، وكانت تدعى سلطات روحية واسعة على جميع المسيحيين ، تنظر شزرا الى كل دعوة سياسية قد تنتقص من سلطانها . وبعبارة أخرى ان الحياة الاوربية كانت تتنازعها سلطتان أساسيتان هما سلطة البابا الروحية ، وسلطة الامبراطور الزمنية ، وهذه « الثنائية » ـ وان انتقلت الينا فى بعض مراحل تطورنا الاجتماعى المتأخر ـ لا يعرفها الاسلام الحق ولا يقرها ، بل ان وحدة العقيدة أدت الى وحدة الحياة ، ووحدة الحياة صيرت خليفة المسلمين اماما للصلاة ، وقائدا للحرب ، ومدبرا للسياسة فى آن واحد . وعلى هذا فتعارض القومية الالمانية أو القومية الايطالية مثلا مع المسيحية لا يستلزم تعارض القومية العربية مع الاسلام .

وحرى بنا ان نتذكر هنا الفرق الشاسع بين صلة المسيحية بالغرب ، وعلاقة الاسلام بالعرب ذلك ان المسيحية دين وافد على الغربيين ، وانها ، وقد انبعثت من روحانية الشرق ، تعارض كل المعارضة طبيعية القبائل التيتونية فى ألمانيا ، والصلتية فى فرنسا ، وان القومى الالمانى أو الفرنسى لذلك ، يجد صعوبة كلية فى التوفيق بينها وبين خصائص قوميته التى يعتز بها ، وانه ليدرك ان المسيحية لم يتأت لها ان تتوغل الى جذور الحياة الجرمانية أو الصلتية . وهذا عكس الحال بالنسبة

للاسلام ، وأثره فى المجتمع العربى ، والامة العربية كما سنوضح هذا بعض التوضيح .

٢ ـ سوء التصوير .

أما سوء التصوير فاريد به تلك الصورة الخيالية الباهتة التى صور بهـا الاسلام كثير من المفكرين والـكتاب ، من مسلمين وغيرهم ، قديما وحديثا ، اذ افقدوا الاسلام مادته ، وانتزعوا منه طبيعته الحيوية المتوغلة فى الحياة العامة ، وأحالوه مع الزمن الى قواعـد ومثـل عامة مجردة لا تتصل بالحيـاة القائمة الا أوهى اتصال . وقد جهد بعض الـكتاب فى قطع الصلة بين الاسلام والحياة العربية التى كانت اولى مجالاته وارحبها . وازداد هذا التصوير سوءا حينما صور فريق من المؤرخين والادباء تاريخ الامة العربية تصويرا خاطئا مغرضا . ولاسباب عديدة ـ لا تتسع هذه المحاضرة لسردها ـ جهد الاعاجم ، وكثير منهم كانوا شعوبيين ينفسون على العرب ما نالوه من شرف الاسلام ، فى عرض تاريخ الامـة العربية على غير حقيقته . وقـد تورط فريق من مؤرخى العرب انفسهم ، « كأبن خلدون » ، فنعت العرب بنعوت ظالمة ، وتجنى عليهم فى كثير من احكامه ، وهو فى الغالب كان يريد الاعراب ، سكان البوادى ، لا العرب المتحضرين ، كما أشار الى ذلك الاستاذ سـاطع الحصرى فى دراسـته القيمة لمقـدمة ابن خلدون . وكان من الطبيعى ان يكون للسياسة أثر فعال فى هذه

الوجهة الخاطئة ذلك لان زوال سلطان العرب السياسى ، وتوغل نفوذ الاعاجم فى الادارة والحكم ، دفعهم الى التقليل من شأن العرب واعطاء صورة للاسلام ذات طابع عالمى ، وقطع علاقته بالعرب ما امكن ذلك ٠ ولقد غالى كثير من امراء العهد العباسى ووزراءه فى هذه الناحية ، كما غالى من قبل بعض حكام الامويين فى الناحية الاخرى ٠ ولست أريد هنا ان استعرض تأريخ الدولة العباسية ، لأبين أثر الاعاجم والموالى فيها ، منذ بدء نشوء دعوتها ، الى حين ظهورها فعلا على مسرح الحياة ، وبعد ذلك الى ان قضى عليها ٠ كما لا أريد ان اسهب فى بحث حالة دول الطوائف ، وكان معظمها غير عربى ، وأثر ذلك فى هذه النزعة الشعوبية ٠

ثم ان بقاء العرب ـ فى الغالب الاعم ـ محكومين للدولة العثمانية قرونا عديدة قد ساعد كثيرا على نشر الفكرة الخاطئة القائلة بتعارض القومية العربية مع الفكرة الاسلامية ؛ ذلك لان ايقاظ أى شعور قومى يعرض خلافة آل عثمان الى خطر جوهرى ، ولهذا كان القطر العربى الوحيد الذى لم يخضع لحكم العثمانيين خضوعا تاما والذى كان دائما فى ثورات مستعرة كبدت الاتراك خسائر فادحة ، هو اليمن الذى كان غالب اهله من الزيدية التى تعتقد ان الخلافة فى قريش ، وفى هاشم من قريش ، بل وفى أولاد زيد بن علي ، وان الخلافة

العثمانية غير شرعية ، لانها تعارض نصوص الاسلام القاطعة ذاتها[1] .

٣ ـ سوء التفسير

وارىد بهـذا فى الدرجة الاولى سوء تفسير بعض الآيات القرآنية المتعلقة بتحديد طبيعة الدعوة الاسلامة ، وذلك لان الاسلام وان يكن دينا عاما يصلح للناس جميعا ، وقد انتشر فى الواقع بين اجناس وقوميات عديدة ، ولـكن ، مما لا شك فيه أيضا ، انه دين قد أنزل أولا وبالذات للعرب ، فهو بهذا المعنى دينهم الخاص ؛ فالرسول منهم ، والقرآن بلسانهم ، وكثير من عاداتهم واحكامهم السابقة قد ابقاها الاسلام بعد ان هذبها ، واستبقى الصالح منها . ونحن فى هذا الرأى لا ننطق عن عاطفة قومية جامحة ، ولا نصدر عن هوى ، ولا نلقى الـكلام على عواهنه ـ كما تقول العرب ـ وانما نستند فى ذلك الى حكم القرآن ذاته والى السنّة النبوية الصحيحة ، والى ما فعله خلفاء صدر الاسلام الذين يمثلون الاسلام أحسن تمثيل . ولا عبرة بعد ذلك بالمفاهيم الخاطئة الغامضة التى شاعت فى العالم الاسلامى ودرج عليها المسلمون بعد ان قوى شأن الاعاجم ، وصارت لهم الصدارة فى المحيطين السياسى والعقلى .. والآيات القرآنية المؤيدة لهذا الرأى

---

(١) بقى المغرب الاقصى او مراكش فى نجوة من الحكم العثمانى أيضا .

عديدة أجتزىء منها ما يلى : جاء فى سورية ابراهيم آية (٤) « وما ارسلنا من رسول الى بلسان قومه » فالرسول العربى اذن قد ارسل لقومه بلسانهم العربى ، وفى سورة الزخرف آية (٢٤) « وانه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون » أى ان القرآن ذكر للرسول ، ولقومه العرب الذين سيسألون اذا ما فرطوا فيه ، وقد جاء فى سورة « البقرة » آية (١٤٣) « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، فالمخاطبون هنا من دون شك ، هم العرب قوم النبى ، ومن ذلك أيضا الآية (٢) من سورة يوسف « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » فالذين يعقلون انما هم الذين يدركون معنى القرآن ويفهمونه ، وهم العرب بطبيعة الحال . وكذلك الآية الثانية من سورة الجمعة « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. » وكذلك ما جاء فى سورة التوبة آية (١٢٨) « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم » بل وفى الآية (٦٦) من سورة الانعام « وكذب به قومك وهو الحق » . هذه الآيات الكريمات من مكية ومدنية وغيرها كثير ، تؤيد بان الاسلام دين العرب قبل أن يصبح دينا عالميا .

وليس فى هذا تعارض مع الآيات الاخرى كالآية (١٠٧) من سورة الانبياء « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » لانه قد ثبت تاريخيا بأن بعث النبى الى العرب ، احيى الامة العربية بمجموعها

وبعثها ، وهذا البعث قد أفاد العالم المعمور حينذاك بكامله ، وكان العرب دعاة الاسلام ومنقذى العالم من الظلم الذى كان سائدا ، والجهل المطبق الذى كان مخيما وكانوا ، على حد ما قال كوستاف لوبون ، ارحم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ...

وفى السنّة النبوية ما يؤيد هذا القول ، من ذلك ما رواه الشيخان البخارى ومسلم ، عن ابن عمر أن النبى قال : « لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان » . وكذلك ما ورد فى الاثر « الائمة من قريش » ، ومن ذلك ما روى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله (ص) « يا سلمان لا تبغضنى فتفارق دينك ، قلت ، يا رسول الله كيف أبغضك وفيك هدانا الله ، قال تبغض العرب فتبغضنى » .

بل ان فى افعال مسلمى الصدر الاول ما يؤيد طبيعة الاسلام العربية ، فقد تردد عمر كثيرا فى فتح الاجزاء الخارجة عن الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، وقد قبل الزكاة مضاعفة من نصارى تغلب القبيلة العربية المشهورة حينما اعتبروا اعطاء الجزية مذلة لهم ، وساهمت كثير من القبائل العربية المسيحية فى الفتح ، وساعدت عليه ، وقد قبل المسلمون الجزية من أصحاب الديانات من الاجناس الاخرى خارج جزيرة العرب اما فى الجزيرة فخيروا بين الاسلام والجلاء . يستدل من هذا كله بأن للعرب وبلادهم وضعا خاصا فى الاسلام . بل أن ما ذهب اليه فريق من الفقهاء فى بحث الكفاءة فى الزواج من كون الاعجمى

ليس بكفء للعربية ، وان استويا فى أشياء أخرى ، لدليل على ما للعرب من وضع خاص ممتاز فى نظر الاسلام والتشريع الاسلامى . واستطيع ان أؤكد بان كثيرا من المبادىء التى أقرها الاسلام وأصبحت جزءاً منه ، هى من التقاليد العربية القديمة التى هذبها الاسلام واعطاها طابعها الجديد . فاحترام الكعبة ، والحج اليها ، عادة عربية قديمة ، وكذلك شأن كثير من مناسك الحج وسننه ، بل أن احترام يوم الجمعة ، وكانت العرب تسميها « يوم العروبة » ، وجعلها يوم « عيد وزينة » ، كما ورد فى الاثر لدليل آخر على طابع الاسلام العربى . وفى احكام الميراث والفرائض تخليد لكثير من النظريات العربية ، وخاصة فى توريث العصبة ، والاهتمام بالاقرباء الصلبيين .

ونستطيع ان نعد من سوء التفسير أيضا ذلكم الوصف الظالم لحالة العرب أثناء ميلاد النبى ، وفى عهد بعثته . وكان لمدونى السير ، ولمن جاء من بعدهم ، شأن فى هذا الامر ، فقد ظنوا انهم يزيدون فى عظمة النبى عليه السلام كلما ازدادوا فى تصوير سوء حالة العرب قبل الاسلام ، لذلك لم يبقوا مثلبة من سفه ، واضطراب ، وانحلال ، وظلم ، وقسوة ، وما الى ذلك الا اضافوها الى العرب ؛ والانكى من ذلك كله انهم صوروا حال العرب جميعا ، وفى كل الازمان ، هو حالهم وقت بعث النبى عليه السلام ، وكأن لم تقم ، من قبل ، للعرب دول ولم

يشيدوا حضارات ، أو كأن لم يكن لهم لغة أو شعر وأدب ، أو مفاهيم حياة • ولست أستطيع فى هذه المحاضرة ان ارد على كل تلك المزاعم التى تعارض القرآن ذاته ، وانما احيل الراغبين فى استقصاء هذا الامر لدراسة الكتاب القيم الذى ألفه الاستاذ « محمد عزة دروزة » وسماه « عصر النبى وبيئته قبل البعثة » ، فقد صور ذلك العصر تصويرا صادقا منتزعا من القرآن ذاته ، ولطم الشعوبية ، ومن سار مسيرها من المستشرقين ، وارجع الامر الى نصابه • والتفسير العلمى الصحيح للانبعاث العربى فى صدر الاسلام انه موجة من موجات الجزيرة العربية ، وان تكن اجل تلك الموجات واخلدها أثرا فى تاريخ العرب انفسهم وتاريخ الانسانية جمعاء •

وليس باعتزازنا بالحضارات العربية القديمة فى اليمن كحضارة المعينين والحميريين والسبأيين ، أو حضارة العمالقة والانباط ، والحضارات العربية التى سبقت ذلك فى عهد الاشوريين والبابليين ، ليس فى هذا كله تعارض مطلقا مع الشعور الاسلامى الصادق • ان الاسلام لم ينسخ الا السىء من عاداتنا ، والباطل من شرائعنا ، وتقاليدنا ، وانه يقرر ان الناس ـ كما ورد فى الحديث الشريف ـ معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الاسلام • وليس من طبيعة الاشياء ان ينهض العرب بمثل ما نهضوا به ، ويقوموا بمثل ما قاموا من

جسيم الاعمال ، فى الحرب ، والسياسة ، والتشريع ، والادب ، والفن ، والاجتماع ، ونواحى الحياة الاخرى ، فى مثل تلك الفترة القصيرة من الزمن ، لو لم يكن معدنهم سليماً ، ومواهبهم الكامنة عريقة ، وطبيعتهم مبدعة ، وروحهم قوية صادقة • وليس من السهل أن ينبغ فى أمة من الامم ، فى جيل أو جيلين ، مثل ابى بكر ، وعمر ، وعليّ ، وأبى عبيدة ، وسعد ، وخالد ، وابن عباس ، وأبى ذر ، وابن مسعود من الرجال ، وخديجة ، وفاطمة ، وعائشة ، وأسماء ، والخنساء ، من النساء ، وغيرهم كثير من عباقرة الدهر ، وعظماء التاريخ ، لو لم يكن العرب قد ورثوا حضارة عريقة متسلسلة ، ولو لم يكونوا مهيأين بفطرتهم للابداع والانشاء والتجديد • وليس كون النبى محمد عربيا حادثا عرضياً ، انه عبقرى من أمة ذات مواهب وخصال عظيمة • ولكن الشعوبيين الاقدمين ـ على حد ما قال الاستاذ عبداللطيف شرارة فى كتابه « روح العروبة » ـ « قد حلوا هذه المشكلة بان عطلوا العرب من كل حيلة ، ولم يعترفوا لهم بأى فضل فى الشئون الانسانية ، وحصروا اهتمامهم واعتبارهم وتقديرهم فى النبى عنوة ، وفصلوه عن غيره من سالفيه ومعاصريه ومواطنيه ، وحولوه الى كائن عالمى ، انتزع من أرضه وسمائه ، وتحلل من تاريخه وقومه ، ومثلوه نباتا باسقا فى صحراء مقفرة ليس لاحد عليه يد ،

ولا هو مدين لاحد بيد ؛ وبالتالى فليس هناك على زعمهم أى معنى وراء عروبة محمد أو عجمته » .

واذا ما تركنا التاريخ جانبا ونظرنا الى اللغة والادب وجدنا ان اللغة العربية قد بلغت قبل الاسلام مرحلة من التقدم ، والادب منزلة من النضج ، لا يمكن أن يكون لمجتمع فطرى ساذج ... يقول المستشرق « نولديكه » : (اننا ليملكنا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية القديمة ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ... الى ان يقول وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها) . وللغة دلائل واضحة على الحياة العقلية للامة ، وهى عنوان تقدم المجتمع . وكون اللغة العربية قد بلغت هذا الحد من الشمول ، وتلك المنزلة فى التركيب ، لدليل على تقدم المجتمع العربى ؛ بل ان القرآن الكريم ليشهد بعظم منزلة العرب فى فنون القول وتقديرهم للفصاحة والبلاغة ، وهذا لا يكون الا فى المجتمع المتقدم عقليا ، ولهذا فان البداوة التى كانت شائعة بين كثير من العرب لم تكن مظهرا من مظاهر الحياة البدائية ، كما هو شأن البدو فى الامم الاخرى . فالعربى ، حتى البدوى ، هو نتاج حضارات ومدنيات قديمة ، وان ما فى ظاهر حياته من جفاء وخشونة قد فرضتها الطبيعة عليه فرضا ، اما عقليته وخصاله ، وأدبه ، فينم عن تقدم اجتماعى عظيم ...

منزلة العرب فى الاسلام :

ويتضح من هـذا كله ان العرب هم بمثابة العمود الفقرى للاسلام ، فهم المخاطبون الاولون بآيات التنزيل ، ومنهم كان المهاجرون والانصـار ، وبسيوفهم فتحت الامصـار والاقطـار ، وانهم على العموم كانوا على حد ما قال عمر فى بعض وصاياه ، : « لا تضربوا العرب فتذلوهم فانهم مادة الاسلام » . واذا ما اردنا ان نضرب مثلا مستمدا من التاريخ المعاصر جاز لنا ان نقول بان منزلة العرب فى الاسلام كمنزلة الروس فى النظام الشيوعى ، مع الفرق الواضـح بين الدعوة الاسلامية « روحية » ، والمبادىء الشيوعية « مادية » وبعد أن تأخذ بنظر الاعتبار كون نبى الاسلام من العرب ، ومن أجل قبائل العرب شأنا ، وأن دستور الاسلام قد نزل بلسان عربى مبين ، وان داعى الشيوعية يهودى ألمانى ، وانجيل الشيوعية « رأس المال » قد وضع باللغة الالمانية . ولست أدرى كيف يجيز دعاة العالمية فى هذه البلاد لانفسهم تقديس الوطن الروسى ، والافتخار بامجـاد الروس وهم ليسوا منهم ، وينكرون على العرب المسـلمين أن يتغنوا بأمجـادهم ويفتخـروا بأبطالهم ؟؟

بعد هذا العرض المفصل للمشكلات العقلية ، والعوامل التى توهم بوجود التعارض بين الاسلام والقومية العربية ، يحسن بنا ان نحدد ماذا يراد بالقومية ، وماذا يقصد على الاخص بالقومية

العربية ، وما هى مقوماتها ؟ لننظر فى تلك المقومات فنرى ما يقرها الاسلام وما ينكرها ، ان كان ينكر شيئا منها .

فالقومية فكرة سياسية اجتماعية ترمى بالدرجة الاولى الى توحيد كل جماعة متجانسة من البشر وخضوعها لنظام سياسى واحد ، واما عناصر القومية أو مقوماتها ففى ذلك اختلاف كبير لسنا بصدد شرحه فى هذه العجالة ، ولـكننا نستطيع ان نؤكد بان القومية العربية الحديثة تستند الى اللغة ، والتاريخ ، والادب ، والعادات والسجايا ، وعلى العموم فان الروابط التى تربط الافراد وتجعل منهم أمة هى روابط معنوية ومادية . ونحن اذا أخذنا هذه المقومات وفحصناها فحصا دقيقا ، وتحرينا عن موقف الاسلام من كل منها نجد تقاربا كليا بل توافقا تاما أحيانا بين ما تدعو اليه القومية العربية وما يقره الدين الاسلامى . فاللغة اذن هى اولى مقومات عقيدتنا القومية ، وهى بالنسبة لامتنا العربية بمثابة الروح ومظهر حياتها ، والامة التى تفقد لغتها يكتب عليها الانقراض والزوال . ولحسن حظ العرب فان لغتهم هى لغة الاسلام ، وان العناية بهذه اللغة ليس واجبا قوميا فحسب بل فرضا دينيا ، واثر الاسلام فى هـذه اللغة وحفظها ونشرها عظيم جـدا . يقول المستشرق الالمانى « يوهان فوك » فى كتابه « العربية » : دراسات فى اللغة والاساليب : « لم يحدث حدث فى تاريخ العرب ابعد اثرا فى تقرير مصيرهم من ظهور الاسلام . ففى ذلك العهـد

وقبل أكثر من ألف وثلثمائة عام عندما رتل محمد (ص) القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، وكانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة » .

اما التاريخ فكما اوضحنا من قبل ان للعرب تاريخا مجيدا قبل الاسلام ، وتأريخهم أكثر نصوعا وأعظم شأنا بعد الاسلام ، والعربى المسلم حينما يعتز بابطاله تمتزج فى نفسه عاطفتى المسلم الورع ، والقومى الغيور ، وفى الواقع فان ابهى صفحات التاريخ الاسلامى هى صفحات التاريخ العربى الاسلامى ، كما يقرر ذلك مؤرخوا الغرب انفسهم . فقد أشار الى هذا المعنى الاستاذ « لوثروب ستودارت » مؤلف (حاضر العالم الاسلامى) وصرح به بجلاء كوستاف لبون مؤلف كتاب (حضارة العرب) . يقول لوبون « يبدو لنا الفرق بين الامم التى قد تكون على جنب كبير من الذكاء كالامة العربية والامم المنحطة كبرابرة القرون الوسطى الذين قضوا على دولة الرومان واجلاف الترك والمغول الذين غمر طوفانهم دولة محمد . فلقد أبدع العرب من فورهم ، بعد ان استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس ، حضارة جديدة أفضل من تلك الحضارات التى جاءت قبلها . وكانت عقول البرابرة عاجزة عن ادراك كنه الحضارة التى قهروا اهلها والتى كان انتفاعهم بها ممسوخا فى بدء الامر ،

والتى لم يسيروا بها نحو الرقى الا بعد ان صقلت ادمغتهم فصارت بعد زمن طويل قادرة على ادراك معانيها » . وقد أسف ذلك المفكر الفرنسى الحر لعدم فتح العرب لاوربا وقال (لو وفق موسى بن نصير لفتح اوربا لـكان قد جعلها مسلمة ، ولـكان قد أنقذها من ظلمات القرون الوسطى التى لم تعرفها اسبانيا بفضل العرب) .

ترى أفباعتزاز العربى بمثل هـذا التاريخ مناهضة للعقيـدة الاسلامية ؟ وحتى التاريخ الذى سبق الاسلام ، ليس هناك ما يمنع المسلم الصادق الايمان ، والعربى المخلص ، من الاعتزاز بالصفحات الناصعة من تأريخ العرب . ألم يذكر النبى عليـه السلام حلف الفضول وهو الحلف الذى تعاقدت فيه بطون قريش قبل الاسلام على نصرة المظلوم حتى يؤدى اليه حقه فقال : « ما احب ان لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لاجبت » .

اما الادب العربى ، وهو ثمرة الشعور والعاطفة العربية فى مختلف عصورها ، فان أعظم وأجل أقسامه قد وجدت بعد الاسلام ، بل ان القرآن ذاته ، بالاضـافة الى كونه كتاب هداية ، أروع أنموذج للادب الرفيع الذى يعتز العربى ، مهما كان دينه ، به . وكم أود لو ان شبابنا خاصة قد قرأوا كتابا صغيرا مبدعا هو كتاب (التصوير الفنى فى القرآن) للاستاذ سيد قطب ليروا جمـال أسلوب القـرآن . ومن يسـتطيع ان يبخس اثر القـرآن فى

الادب العربى ؟ • اما الشعر العربى قبل الاسلام ، وخاصة ما كان منه متعلقا بالوصف والحكم ، فليس فى أكثره ما يعارض روح الاسلام • اما المقوم الرابع من مقومات قوميتنا العربية • العادات والسجايا العربية الصالحة ، • فلا شك ان التقارب كلى ، ان لم أقل ان هناك انطباقا تاما بين الخلق الفاضل ، كما تصوره القومية العربية ، وكما يريده الاسلام • فلنأخذ آية من القرآن الكريم تعرف البر ـ أجل صفات المسلم ـ ولننظر الى أى مدى تقرها القومية العربية • • ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » أفليست فى هذه الآية الكريمة ، دعوة صريحة للايثار والتضحية فى سبيل الغير فقيرا كان ذلك الغير أو مسكينا أو رقيقا بمساعدته على نيل حريته ، وفيها دعوة للايفاء بالعهد ، والصبر أثناء الازمات ، والشدائد • وهل (المروءة) وهى جماع الفضائل العربية ، شىء غير هذا ؟ •

اننا لا ندعى بان جميع الاخلاق العربية قبل الاسلام كانت صالحة ، ولكننا نقول بأن الاسلام قد أقر اسمى صفات الخلق

العربى ، ونحن فى دعوتنا القومية للاعتزاز بالاخلاق العربية انما نريد تلك الاخلاق الصالحة المهذبة التى ترفع من شأن الانسان وتجعل منه مخلوقا حريا بوصف « التهذيب » .

خصائص الحركة القومية ونظرة الاسلام اليها :

ولنترك المقومات للقومية العربية جانبا ولننظر الى القومية من حيث هى حركة سياسية ترمى الى توحيد العرب ، وحكم انفسهم بأنفسهم . ان الحركة القومية هى حركة « ديمقراطية » « اشتراكية » « شعبية » « تضامنية » . والاسلام وان لم يفصل نظام الحكم ولكنه أوجب الشورى ، وهو من دون شك يقر النظام الديمقراطى الصحيح كل الاقرار ، وتشريعاته المالية وقواعده الفقهية ، هى فى طابعها الاساسى ، اشتراكية ، ما فى ذلك أدنى شك . وقد وفق الاستاذ « سيد قطب » توفيقا تاما فى شرح هذه الجبهة فى كتابه القيم « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » . ويكفى للتدليل على الروح التضامنية فى الاسلام وشعبية ان تتذكر طرفا من سيرة رسوله ، وسيرة خلفائه . فنظام الحكم القومى الذى ندعو اليه والحالة هذه لا يتعارض فى قليل ولا كثير مع روح الاسلام .

القومية العربية والوحدة الاسلامية :

ولكن هذا القول يجب ان لا يختلط مع فكرة الدعوة الى الوحدة الاسلامية لان القول بأن الاسلام لا يتعارض مع الروح

القومية العربية شيء ، والترويج للوحدة الاسلامية شيء آخر ٠ والوحدة الاسلامية بمفهومها الصحيح الدقيق هي تكوين نظام سياسي شامل يخضع له المسلمون جميعا ، وهذا النظام وان يكن امنية جميع المتدينين من المسلمين ، ولـكنه من الناحية العملية غير ممكن - أو على أقل تقدير انه غير عملي في الظروف الراهنة - لاسباب عديدة ؛ بعضـها جغرافي ، وبعضـها سياسي ، وبعضـها اجتماعي ؛ حتى لو سلّمنا بتحديد تلك الوحدة ، وجعلها قاصرة على الاجزاء المتجاورة من الوطن الاسلامي ٠ وعلى فرض امكان توحيد هذه الاجزاء فان توحيد الاجزاء التي تتكلم لغة واحدة ، وتتذوق أدبا واحـدا ، ويجمعها تأريخ واحـد ألزم وأولى وأقرب للواقع المحسوس ٠

ومن غير الطبيعي ان ننتظر اتحاد العراق بايران وافغانستان مثلا قبل ان يتحد مع سوريا والاردن ، والقول بخلاف هذا هراء لا يستحق الرد ٠ وعلى هذا فتكون الدعوة لتوحيد العرب - وهذا هو أهم وأجلى غايات القومية العربية - الخطوة العملية التي يجب ان تسبق أية دعوة للوحدة الاسلامية ٠ ولـكن الغريب انك تجد بعض الذين يسمون انفسهم دعاة الوحدة الاسلامية في البـلاد العربية أعنف خصوم الوحدة العربية ، ولو انهم ادركوا الاشياء على طبائعها ، وقدروا الامور تقديرا صادقا ، ولم يخضعوا للعواطف المجردة ، لسلموا تسليما تاما بأن دعوتهم لا محل لها قبـل ان

تتحقق اولى غايات القوميين العرب ، وهو انشاء كيان عام للعرب الموجودين فى قارتى آسيا وافريقية .

الخلاصـــــة :

وخلاصة القول أن ليس هناك تعارض أساسى أو تضاد واضح بين القوميـة العربية والاسـلام ، وأقرب ما يمكن ان توصف به العلاقة بينهما انها علاقة عموم وخصوص ، واذا أردنا ان نصور تلك العلاقة تصـويرا هندسيا امكننا تصور الاسـلام والعروبة دائرتين متداخلتين فى القسم الاشمل والاهم منهما ، وما يبقى خارج الدائرة المشتركة من كل منهما لا يتعارض تعارضا أساسيا مع القسم الآخر . وهذه حقيقة يجب ان ندركها ، وحرى بالعرب ان يغتبطوا بهذه النعمة الـكبرى ، نعمة عدم تعارض قوميتهم مع دينهم ، ذلك لان التركى المسـلم الذى يريد الاعتزاز بقوميتـه مثلا ، قد يجد صعوبة كلية فى التوفيق بين ذلك الاعتزاز وشعوره الدينى الصـادق ، فشعوره القومى يفرض عليـه الاعتزاز بلغتـه وتنقيحها من اللغات الاجنبية الاخرى ، وهذا يسوقه الى التنكر للعربية ، المعين الغزير الذى استقت منه اللغة التركية ، والادب التركى من أقدم الازمان . واذا ما أراد ان يفخر بأمجاده وأبطاله فى الماضى ساقه ذلك فى الغالب الاعم الى ان يحس ان العرب المسلمين كانوا غرباء عنه ، وانهم كانوا ـ على الرغم من المظاهر الخارجية ـ المستعمرين الحقيقيين له عقليـا وروحيا وثقافيـا ، اما العربى المسلم القومى فلا يجد شيئا كثيرا من امثال هذا الحرج .

القومية العربية ومجموعة الشعوب الاسلامية :

ولست أدرى هل أنا بحاجة الى ان أقول بأن دعوتنا للقومية العربية ، وقيام كيان عربى شامل ، لا يدعونا ، بحال من الاحوال ، للتنكر لغير العرب من المسلمين ، ذلك لاننا - على حد ما نص عليه ميثاقنا القومى - نعتبر مجموعة الشعوب الاسلامية أقرب المجموعات الاخرى الينا ، ونرى فيها قوة عظيمة نعتز بها ، ونعمل على توثيق الصلات بها ، والتعاون معها . اما علاقتنا مع المسلمين من غير العرب من سكان الوطن العربى فهى علاقة الاخ بأخيه ، انهم أخوان العرب ، لهم ما للعرب من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . وليس فى قوميتنا أية دعوة لاضطهاد أى جنس من الاجناس البشرية ، بل ليس فيها شىء من الغرور القومى الاجوف ، والتعصب الجنسى الاعمى ، اننا حينما نفخر بامجادنا ونعتز بقوميتنا ، نريد ان نبعث امتنا لتنال مكانها اللائق بها بين شعوب العالم وامه . وهذا حق طبيعى تقره الاديان ، وتعترف به قواعد العدل . وليس فيه استعلاء على الغير ، أو ظلم للاجناس الاخرى .

القومية العربية والعرب غير المسلمين :

وحرى بنا ان نعلم بأن ليس فى دعوتنا القومية هذه ما يثير غير المسلمين من العرب ، أو ينقص من حقوقهم كمواطنين صالحين . اذ التعصب ، بمختلف صوره وأشكاله ، يتنافى مع الطبيعة العربية ، والعرب من غير المسلمين كانوا يتمتعون بحقوقهم

الـكاملة فى ظـل الدولة العربية منـذ أقدم الازمان ، وكانت مجالات الحياة فسيحة أمامهم . والقوميون المخلصون من مسيحيى العرب يدركون هذا المعنى ، ويعلمون بأن الدين الاسلامى ، وما واكبه من حضارة ، جزء لا يتجزأ من تراثنـا القومى ، وعليهم كقوميين ان يعتزوا به ، كما يعتز به اخوانهم من المسلمين .

واسمحوا لى فى مختتم محاضرتى هذه ان أتلو عليكم هذه الفقرات المقتبسة التى أرجو ان تفكروا مليا فى معانيها :

« القومية الحقة لا يمكن بحال من الاحوال ان تناقض الدين الصحيح ، اذ ليست فى جوهرها سوى حركة روحية ترمى الى بعث قوى الامة الداخلية ، وتحقيق قابلياتهـا العقلية والنفسية ، لـكى تقدم الامة قسطها من تمدن العالم وحضارته ... ولهذا وجب على كل عربى من أية طائفة أو ملة ، يهتم بثقافته الماضية وبعثـه الجديد ، ـ وهـذا الاهتمام هو فى طليعة الواجبات التى تفرضها عليه قوميته ـ ان يقدم على درس الاسلام ، وتفهم حقيقته ، ويقدس ذكرى النبى العظيم الذى أنزل الاسلام عليه ... »

اتدرون من هو المقتبس منه ؟ انه عربى ، مسيحى ، مثقف ، وعلى هذا فكلامه حجة على القوميين والمسيحيين والمثقفين ، انه قول الدكتور قسطنطين زريق عميد الجامعة السورية وأحد أعلام القومية العربية الحديثة .

خاتمـــــة :

وانى لادرك بان محاضرتى هذه ، وعشرات أخرى - فى هذا الصدد - أفضل منها ، غير كافية لتبديد كل الاوهام والاخطاء الشائعة حول مفهوم القومية العربية والاسلام ، ولا قادرة على ازالة كل التصورات التى توحى بوجود التعارض بينهما . اذ ان ما انتجته تلك الصور المسيئة والتفاسير الخاطئة ، وخلفته العصور الغـابرة ، لا سبيل لاجتثـاثه ومحوه ما لم نحقق الامور الثلاث التاليـــة :

أولا - يجب علينـا ان نتحرر من سـلطان الغرب الذهنى ، ومفاهيمه المستوردة ، ونفـكر تفـكيرا حرا أصـيلا فى قضـايانا وشؤوننا وتاريخنا ، ونترك القيـاس المضلل فى الشؤون العقليـة والاجتماعية ؛ وذلك لان اختـلاف المقيسـات ، وتباين العوامل والاوضاع ، سيؤدى بنا الى نتائج مخطئة ، واحكام باطلة . علينا ان نستقل فـكريا وننظر الى الاشياء نظرة موضوعية ، ولا نأخذ عن الغرب حينما نأخذ ، أو نعرض حينما نعرض ، الا بعد فحص دقيق ، ومقارنة محيطة تامة .

ثانيا - علينا ان نعمل بجد واخلاص لعرض ماضى امتنا عرضا جديدا ، وكتابة تأريخنا بأسلوب علمى صحيح ، لنرفع تلك الصور الممسوخة ، ولنبطل تلك الاحكام الجائرة ، ولنمزق تلك الصحائف السود التى دبجتها يراعات المفرضين والدساسين . علينا ، بعبارة

أخرى ، ان ننزه تأريخنا من دس الشعوبية ، وبلاهة المخرفين ـ ولا اسميهم المؤرخين ـ ونعرض تاريخنا ، كما تعرض الامم الحية تواريخها ، ونؤكد على القيم الحضارية ، وما قدمناه على مدى العصور للانسانية من خير فى العلم ، والفن ، والادب ، والتشريع ، ونواحى الحياة الفكرية الاخرى • وعندئذ ستنمحى من مخيلات كثير من ابناء هذا الجيل وبناته تلك الصور الشوهاء ، والاشباح السوداء ، التى وقرت فى أذهانهم عن تاريخ أمتهم ، وسيرون ذلك التاريخ قويا ، كما يجب ان تكون القوة ، ناصعا كما يكون النصوع ، حيا زاخرا بالمشاهد الاخاذة ، والبطولات الخالدة ، والخير الوافر العميم •••

ثالثا ـ وأخيرا وليس آخرا ، علينا ان ننظر الى الاسلام الذى نعتز به كل العزة ، ونعتقد انه يعكس النفس العربية ، وهو معينها الروحى الذى لا ينضب ، علينا ان ننظر اليه ، ككل تام مجرد عن صفته الطائفية والمذهبية ، منبثق من ينابيعه الاصلية النقية ـ كتاب الله وسنة نبيه ـ كما فهمه اسلافنا القدماء قبل ان يحمله بعض متأخرى المسلمين ، ما كمن فى عقولهم الباطنة من آثار الزردشتية ، والبوذية ، والاسرائيلية ، والسفسطة الرومانية والاغريقية • علينا ان نتلقاه منتزعا من بيئته العربية الصافية غير ممتزج بالمحيط العالمى الخيالى ، ولا مكبل بقيود الصوفية الرمزية ، أو مثقل بأوزار الكهنوتية الجامدة •

خاتمة الكتاب

بعد ان اعدت قراءة هذه الاحاديث والخطب والمقالات ، ورتبتها لغرض الطبع فى هذا الكتاب ، خطرت لى خواطر عديدة ، وتنازعتنى أفكار لا حصر لها . وشعرت اننى كنت قد مسست بعض القضايا الاساسية مسا عارضا ، وتطرقت لبعض المشكلات تعرضا رقيقا ، وبحثت بعض الموضوعات بحثا مقتضبا . وتيقن عندى من جديد ، ان مجال القول فى الاسلام ، ومبادئه ، ونظمه ، وروحه ، لما يزل واسعا كل السعة ، وان من الخير ان تعالج بعض القضايا المهمة ـ وخاصة ما يتعلق منها بحياتنا اليوم ، ـ بافاضة تامة ، واستقصاء دقيق لنجلو عن « الاسلام » ـ من حيث هو معتقد دينى ، ونظام اجتماعى ، وفلسفة حياة ـ ما تجمع من اصداء ونتوءات لنعيده من جديد مصقولا بارقا وضاء ، ولنزيل ، من جهة أخرى ، بعض ما ران على بعض القلوب الغلف من غشاوة حجبت عنها سنى الاسلام الساطع .

وعندى ان اول ما يجب ان يعنى به دعاة الاسلام الحق دفع الفكر الخاطئة التى تجمعت ، مع مر الزمن ، وفى العصور الاخيرة خاصة ، حوله فشوهته وابعدته عن الواقع . ومن اخطر هذه الافكار واشدها ضررا بالاسلام تقسيم الحياة بين « دين » و « دنيا » ؛ وان ما يتعلق بالدين أمور تعبدية ومعتقدات غيبية لا علاقة لها بالحياة التى نحياها .

ان الاسلام يعارض هذه الفكرة أشد المعارضة . انه يقيم عقائده ، ويرتب نظمه ، ويشيع فلسفته ، على أساس متماسك من وحدة الحياة . بمعنى انه لا يقر تقسيم حياتنا بين هذه الدنيا التى نحياها ، وحياتنا الاخرى التى نرتقبها . ان هاتين الحياتين ممتزجتان اشد الامتزاج ، ومترابطتان أوثق الترابط . وان الاولى هى سبيل الاخرى ، وان القواعد المشرعة قد شملت الاولى والاخرى على حد سواء . وعلى هذا فليس بالامكان تقسيم الحياة فى نظر الاسلام الحق الى « دنيا » تنتظمها قواعد موضوعية محددة لا علاقة لها بالدين ، و « اخرى » ينظمها دين لا علاقة له بالدولة . ان من اجل اسرار عظمة الاسلام ودواعى قوته ، هذا التماسك الشديد ، وذلك الترابط الوثيق . فليس فى الاسلام مسيح وقيصر ، وليس فى الاسلام كنيسة وحكومة ، وليس فى الاسلام دين (بمعناه الغربى الضيق) ودولة . اذ تترابط هذه كلها أشد الترابط ، حتى تتحقق وحدة الحياة التامة التى اشرت اليها من قبل .

وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا دقيقا واضحا الاستاذ علال الفاسى (رئيس حزب الاستقلال فى المغرب) فى مقال مسهب له بعنوان « التفكير الاجتماعى » نشره فى العدد (١٢) من مجلة « دعوة الحق » المغربية الصادر فى يونية ١٩٥٨ نجتزأ منه مايلى : « فاما عندنا فقد نسينا مدلول (الدين) بالمعنى الاسلامى ، وهو مجرد تشريع ،

فأصبحنا بطبيعة الحال نفهم من معنى الدين ما تحتويه كلمة (Religion) (رليجيون) وأصبحنا نفكر فى أمور الدين بما يفكر به الغرب ، وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شىء لنقد مجتمع على تحكم الكنيسة ... وقيام ارستقراطية اقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد معهم الشعوب .

وهكذا وجدت عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة مثلا .

فالدين بالمعنى الغربى لا وجود له فى بلادنا ، والدولة والدين شىء واحد ، لان الدولة لابد ان تقوم على عقيدة أو على خلق ، ولابد ان تكون خاضعة لقانون وهى المسؤولة عنه وعن ايجاده ان لم يكن موجودا ، وكل ما هى مطالبة به ان تكون موافقة لرغبات الامة فى تصرفاتها وأعمالها ، فالدولة الاسلامية ليست دولة « اكليريكية » بالمعنى الذى يفهمه الغرب ، بل يمكنا ان نقول انها « لايكية » بطبيعتها ، لا لانها منفصلة عن الكنيسة ، ولكن لان الكنيسة غير موجودة وليست من طبيعة الدين الاسلامى ولا جزءاً منه » .

ويكفينا ان نتذكر فى هذا الصدد قوله تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . ويكفينا ان نتذكر قوله تعالى بصيغة الاستفهام الاستنكارى ، وهو ـ كما يقول البلاغيون ـ ابلغ انواع التقريع : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ان السبيل الاساسى لبعث هذه الفكرة واعادة الحياة النابضة الزاخرة بالحيوية لهذه العقيدة هو اشاعة المفاهيم الصحيحة عن الاسلام ، وايجاد جيل واع مدرك لهذه الحقيقة يسعى لاحالتها الى واقع محسوس فى سلوكه فى الحياة .

ولا سبيل لهذا الا بتنشئة الاجيال الصاعدة نشأة اسلامية صادقة قائمة على اسس سليمة من العلم الصحيح ، وقواعد التربية الحديثة .

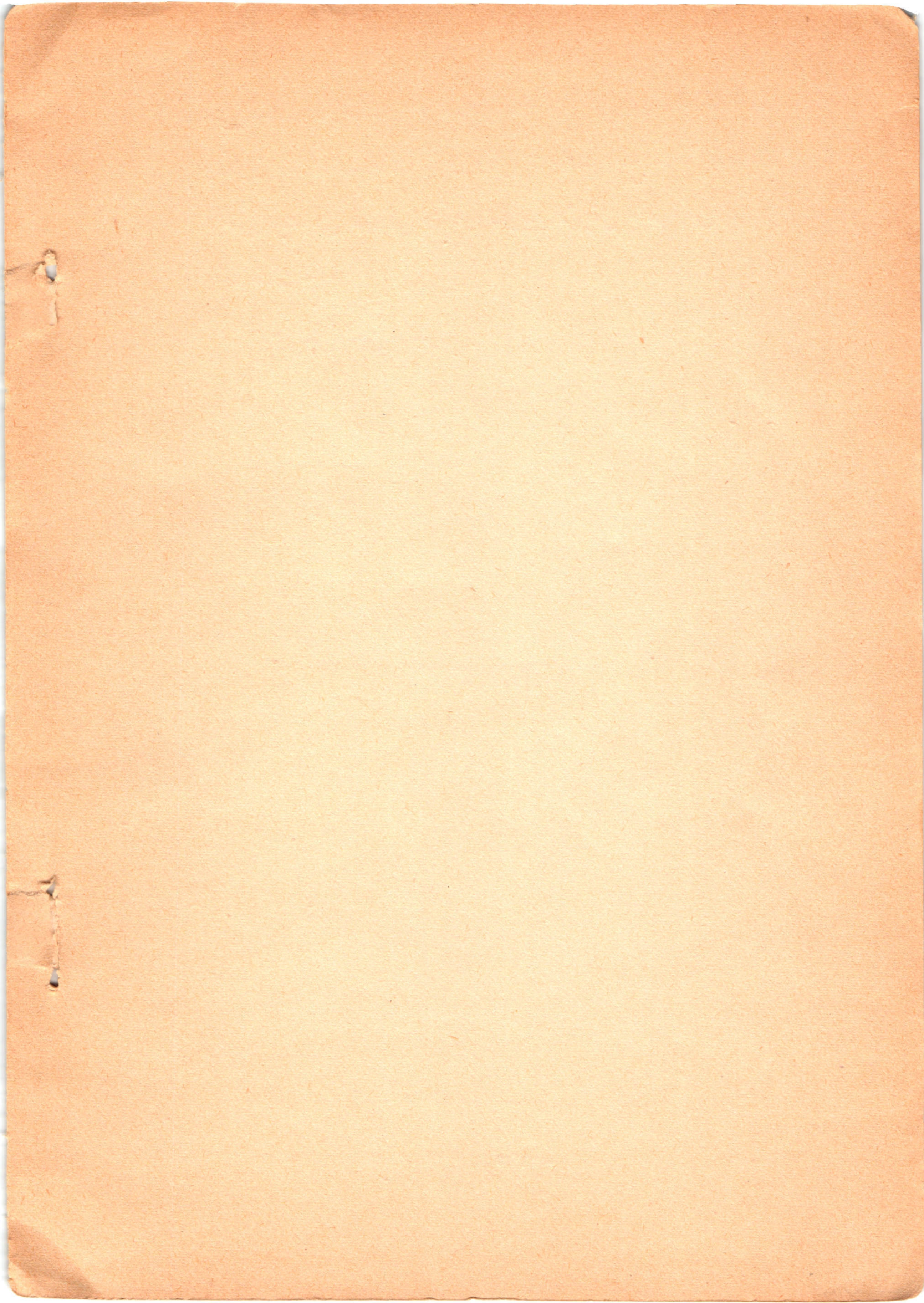
ولا سبيل لانشاء تلك الاجيال الا اذا اعددنا عددا وافيا من المعلمين والمعلمات المدركين فلسفة الاسلام والمدركات ، المستضيئين بروح الاسلام ، حتى يفيض بعض ما فى نفوسهم على طلابهم وطالباتهم فيضا . اذ كيف نرجو الاصلاح من غير الصالح ، وكيف نقيم هاديا من هو بحاجة الى من يهديه ؟ ان من يدعو للعدالة يجب ان يكون عادلا ، كما تقول بعض قواعد القانون الانكليزى ، وان فاقد الشىء لا يعطيه ، كما نقول بلغتنا القانونية الحديثة اليوم .

ان تحقيق هذا المطلب ليس بالامر الهين الميسور . فلابد من عمل دائب ولابد من تضحيات جسام ...

ونحن اذا وفقنا لتحقيق هذه الغاية نكون قد سلكنا أقوم سبيل لبلوغ أهدافنا العليا ، واقمنا أعظم ستار ضد كل المبادىء والافكار

التى تخالف روحانيتنا ، وتعارض تأريخنا ، وتهدد مصلحة امتنا .
ونكون بذلك قد حققنا أدق وقاية ، واقمنا امنع مناعة ضد أى
مرض اجتماعى هو فى فتكه وتخريبه لا يقل خطرا عن أى وباء
وافد فتاك ...

ترى هل نحن فاعلون ؟



على الرغم من الجهود المشكورة التى بذلتها مطبعة العانى فى اخراج هذا الكتاب على هذا الشكل الانيق فقد وقعت بعض الاخطاء المطبعية التى جمعنا معظمها فى هذا الجدول وتركنا بعضها الآخر لنباهة القارىء ٠

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
عباد	عباده من	١٩	٦٠
اراهم	أرادهم	١٨	٦٣
ولو	لو	١٢	٨١
منهم	من هم	٦	٨٥
بقوله « الدين المعاملة ؟ » ٠	بقوله : « الدين المعاملة ٠ »	١١	٨٨
يما	حسبما	٧	٩٣
١٩٥٠	١٩٤١	١٧	٩٥
وقمنا	قمناء	١٠	٩٧
المقالات	المغالاة	١٨	١٠٦
انكشفت	انكسفت	٣	١٠٩
العاميه	العاليه	١٤	١٠٩
اوقعهم	اوقعتهم	٦	١١٤
من	فى	١٢	١٢٣
الغرض	الفرض	٧	١٣٣
وحرف	وصرف	١	١٣٤
يريد	يرد	٢	١٣٥
ومن علائم النفس	ومن علائم	٨	١٣٩
علميا	عمليا	٤	١٥٢
تفريط	تفرط	٦	١٥٥
واجناس	والاجناس	١٤	١٥٥
الحرية	ام الحريه	٤	١٥٧
وولائهم	وولاتهم	١٢	١٦٨
حيلة	حلية	١٥	١٧٧
وشعبية	وشعبيته	١٤	١٨٤

الفهرست

كتب للمؤلف

١ ـ **مذكرات عن احكام الاراضى فى العراق**

مطبعة التفيض بغداد ١٩٤٠ نافد

٢ ـ **الموجز فى تاريخ القانون**

الطبعة الثانية على نفقة وزارة المعارف مطبعة الرشيد بغداد ١٩٤٩ نافد

٣ ـ **العراق من الاحتلال حتى الاستقلال**

على نفقة معهد الدراسات العربية العالية مطبعة دار مصر للطباعة القاهرة ١٩٥٤

٤ ـ **مبادىء اصول القانون**

الطبعة الثانية مطبعة العانى بغداد ١٩٥٨ نافد

٥ ـ **ابحاث واحاديث فى الفقه والقانون**

مطبعة العانى بغداد ١٩٥٨

٦ ـ **الدولة الموحدة والدولة الاتحادية**

مطبعة العانى بغداد ١٩٥٩

٧ ـ **من روح الاسلام (هذا الكتاب)**

مطبعة العانى بغداد ١٩٥٩

تحت الطبع :

نظرات وآراء في التربية والاجتماع

يصدر قريبا